بصائر

عاشوراء

الجزء الثاني

سماحة العلامة

الشيخ محمد علي المحفوظ

بسم الله الرحمن الرحيم

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ / ٢٠١٥م

هوية الكتاب:

الكتاب: بصائر عاشوراء - الجزء الثاني

المؤلف: سماحة العلامة الشيخ محمد علي المحفوظ

الناشر: دار أهل البيت عليهم السلام

بيروت - لبنان

بصائر
عاشوراء

الجزء الثاني

سماحة العلامة
الشيخ محمد علي المحفوظ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين نبينا محمّد وأهل بيته الطيبين الطاهرين

قال الإمام الرضا عليه السلام: «**إنّ المحرم شهر كان أهل الجاهلية يحرّمون فيه القتال، فاستُحلّت فيه دماؤنا، وهُتكت فيه حُرمتنا، وسُبي فيه ذرارينا ونساؤنا، وأُضرمت النيران في مضاربنا، وانتُهب ما فيه من ثقلنا، ولم تُرع لرسول الله حرمة**

في أمرنا؛ إنّ يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلّ عزيزنا بأرض كرب وبلاء.. فعلى مثل الحسين عليه السلام فليبك الباكون، فإنّ البكاء عليه يحطّ الذنوب العظام»[1].

عادت عاشوراء الحسين عليه السلام بذاكرتها الحمراء والسوداء لتخطّ الأخاديد الدامية في قلوب المؤمنين العارفين، وتزلزل جبال الجهل وأودية الهوى، ولتتقشع سحب الغفلة وغشاوات العمى، ولتتفجر حمم الحرية من بركان الضمائر النابضة بالحقّ والعدل والحريّة.

إنّ قلباً لم يستشعر الحزن على رزء الحسين عليه السلام هو قلب لم يعش الإيمان ولم يتذوق حلاوة القرب إلى الله ولم يعِ حقائق معرفة الله.

وإنّ مجتمعاً لا يحيي ذكر الحسين عليه السلام هو مجتمعٌ قد نسي الله فأنساه الله ذكره ﴿...وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

وإنّ أمّة لا تنهل من روح الحسين عليه السلام العزة والإباء والكرامة وكلّ قيم الحقّ هي أمّة لا خلاق لها ولا هم يُنظرون.

لقد أحيا الحسين عليه السلام بنهضته المباركة الإسلام، وأنعش

(١) بحار الأنوار: ج ٤٤- ص ٢٨٣

(٢) الجاثية: ٢٣

بدمائه الطاهرة العقيدة، وأذكى بمناقبيّته روح الدين بعد أن اندرست معالمه وانطفأ نوره فأبى الحسين عليه السلام إلّا أن يتمّ نور الله ولو كره الكافرون، فأشرق الحسين عليه السلام بإذن ربّه على الكون كلّه وعلى البشريّة جمعاء وخسر هنالك المبطلون.

وجادت كربلاء بأنجم وكواكب ضربوا أروع الأمثلة لنصرة الحقّ فكانوا أشعّة من نور الحسين عليه السلام يفيضون، طبعوا بدمائهم على جبين الإنسانيّة شعاراته الخالدة «**هيهات منّا الذلة**» فما وجدوا الموت إلا سعادة وما الحياة مع الظالمين إلّا برما فهتفوا ملبّين داعي الله «**لبيك يا حسين**».

وما كان مشوار الرفض الزينبيّ إلّا تتمات مسيرة لا تنتهي وفصول ملحمة أزليّة بين الحق والباطل وبين العدل والظلم، وما كانت زينب عليها السلام إلّا كلمة من كلمات الله قذفت باطل بني آكلة الأكباد وحزب الشيطان فإذا هو زاهق ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

إنّ كربلاء اليوم هي مهوى قلوب الأحرار، ومعراج قلوب المؤمنين، وسدرة منتهى الثوار، وجنّة مأوى المستضعفين في العالم بأسره، إذ أنّ كربلاء ملحمة كبرى للقيم الإلهيّة منها ينهل ظماء العدل، وبها يرتوي عطشى الحريّة، ولها يتطلع

(١) الأنفال : ٧

طـلّاب الحـق.

وإننـا إذ نعيـش هـذه الأيـام العظيمـة أيـام الله علينـا أن نكـون الأوفـر حظـاً، والأعظـم نصيبـاً والأوفى كيـلاً مـن نمـير معـارف كربـلاء ومـن غمـير فيوضـات عاشـوراء وأن نقـوم بواجباتنـا الرسـالية تجاه الحسـين عليه السلام، ذلـك أنّ أخطـر التحديّـات التـي تواجههـا المجتمعـات هـي تلـك التـي يقـف فيهـا المجتمـع حائـراً بـلا حلـول أو معالجـات حيـث يبقـى المجتمـع أسـيراً أمـام أزماتـه مـن دون قـدرة عـلى تلمّـس الطريـق نحـو الحقيقـة، ولذلـك نـرى أنّ بعـض المجتمعـات تـراوح مكانهـا لا تسـتطيع الخـروج مـن عنـق الزجاجـة بينـما تتقـدم مجتمعـات أخـرى عـلى طريـق التنميـة والتغيـير، وليـس هنـاك مـن مجتمـع «محظـوظ» وآخـر «منحـوس» ولكـن الـذي يصنـع الفـارق في كلّ الأحـوال هـي الرؤيـة والمنهـج والمـشروع، ولأن مجتمعاتنـا تمـرّ بالكثـير مـن الأزمـات فـما أحوجنـا اليـوم للبحـث عـن الحلـول و تلمّـس طـرق العـلاج للمشـكلات، لذلـك لابـد لنـا مـن العـودة إلى قيـم ثـورة الإمـام الحسـين عليه السلام والاسـتضاءة ببصائـر عاشـوراء للوصـول إلى الحلـول الناجعـة لازماتنـا المسـتعصية.

إننـا نسـعى مـن خـلال هـذا الكتـاب للاهتـداء ببصائـر الثـورة الحسـينية الخالـدة، عـبر قـراءة معمّقـة لمضامـين كربـلاء،

تفضي إلى صياغة حلول عمليّة للأزمات الحادّة في المجتمعات المعاصرة، وما ذلك إلّا بتوفيق من الله عزّوجلّ..

و الحمد الله ربّ العالمين

والصلاة والسلام على خير خلقه محمّد و آله الطيبين الطاهرين

محمد علي المحفوظ

البحرين

الاستقلالية

وحسن الاختيار

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1]

يواجه الإنسان في حياته تحدّيات عديدة وقضايا شائكة ومواقف معقدة، تؤثر على قرارته واختياراته، لذلك فإنّ من التحدّيات المهمّة التي يتعرّض لها الإنسان في حياته العمليّة قدرته على الاختيار، ذلك أن الإنسان عندما يُوضع في موقف أو قضية تستلزم منه اتّخاذ قرار ما ستعترضه مجموعة من الأمور التي لا بد لها من التأثير على خياراته، ومن هنا نشأ الكلام في هذه المسألة المهمّة وهي تفسير السلوك والفعل الإنساني عند حاجة المرء لتحديد خيار ما، فكان السؤال: هل الإنسان مُخيَّر في اختياره، أم هو مُجبَر على ذلك ؟ ونجيب على هذا السؤال فنقول:

اعتبر البعض أنّ الإنسان مجبر على أفعاله، وليس مخيّراً فيما يريد وغير قادر على الاختيار فيما يعمل، بل إنّ الأمر مفروض

(١) المدثر: الآية ٣٨

عليه من الله عزّ وجلّ، وقال القدريّون والدهريّون والجبريّون إنَّ الإنسان مجبرٌ على أفعاله، و ليس بيده خيار، فهو لا يملك الإرادة، ولا يستطيع أن يرفض أي فعل، فهو عبارة عن المحل الذي تجري فيه مشيءة الله وإرادته، كما يجري الماء في النهر وهو لا يملك الرفض أو القبول الذاتي.

كما أن النظريات الغربية اليوم بمختلف مدارسها تقول "بالحتميّة"، وهي تعبير آخر عن "الجبر"، فالماركسية -مثلاً- تؤمن بحتميّة الصراع الطبقي، وكذلك الحال بالنسبة للمذهب الاجتماعي الذي بنيت عليه الديمقراطية الغربية الحاكمة، حيث يؤكد هذا المذهب حتميّة تأثير القوانين الاجتماعية على حركة الإنسان.

بينما ذهب البعض الآخر إلى نقيض الرأي الأول واعتبر أنّ البشر مخيّرون بشكل مطلق، وأنّ السلوك الإنساني مفوَّض للإنسان نفسه، وهو وحده يستطيع أن يقرر ما يشاء، وليس لله تعالى القدرة على منعه، أو إرغامه على فعل شيء، فهو مفوَّضٌ في أعماله كلّها، ولا دخل لله تعالى ولا لسلطته فيها.

إنّ تفحّص هذين القولين يقودنا إلى الإقرار بعجز ظنون البشر في الوصول إلى خط واضح في هذا الإطار، حيث انتهت هذه الظنون البالية إلى الجبر تارة وإلى التفويض أخرى.

نظرية الإسلام

تحدّث الإسلام حول هذا الموضوع، وبيّن المآخذ على هذين الرأيين، وأنّهما رأيان عاجزان عن التفسير العقائدي السليم، وغير متطابقين مع المفهوم التوحيدي الأصيل، فأمّا الرأي القائل بجَبْر الإنسان على أفعاله، فإنّه يتعارض ويتناقض مع عدل الله سبحانه وتعالى، وأمّا الرأي القائل بتفويض الأفعال للإنسان، فهو أيضاً يتعارض ويتناقض مع الإيمان بقدرة الله سبحانه ومشيءته وَهَيمَنتِهِ على خلقه، فكلا الرأيين قد وقعا في الخطأ والابتعاد عن الفهم الصحيح للسلوك الإنساني عند الاختيار، فالله سبحانه وتعالى مُنزَّه عن الجبر، ومنزَّه عن التفويض، ولا يمكن للطفه الواسع أن يصادر إرادة الإنسان في خياراته، والله سبحانه وتعالى هو المالك وهو القادر على كلّ شيء، ولا يمكن أن يجري في ملكه إلّا ما يشاء، وقد شاء أن يعطي الإنسان الاختيار، ويحمّله مسؤولية اختياره هذا.

لقد بيّن الإسلام الرأي الصحيح عبر أهل البيت عليهم السلام والذي يقول لا جَبْر ولا تَفويض، لا مجبرٌ هو الإنسان بشكل مطلق، ولا مفوّضٌ بشكل مطلق، وإنّما «**أمر بين أمرين**»، فالذي يستقرئ القرآن الكريم، والسُّنة النبوية المطهَّرة، ويستوعب المفاهيم والأفكار الربانيّة، ويعرف صفات الله تعالى، وما يصحّ أن يُوصف به، وما لا يصح أن يُنسب إليه، حينئذٍ يعلم من خلال ذلك علاقة الخلق بخالق الوجود، وآثار الله في خلقه، كما يستطيع أن

يُشخِّص العلاقة بين إرادة الله وإرادة الإنسان، ومعنى القدرة على الاختيار، وهذا الاتجاه هو الاتجاه الذي أَثبتَهُ أئمة أهل البيت عليهم السلام وبيَّنوه ووضَّحوه للأمَّة فقد فسَّر الإمام الرضا عليه السلام هذه الآية، واستقصى غوامضها. حينما سُئل عليه السلام عن معنى قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[1] فقال عليه السلام: «**إنَّ الله تبارك وتعالى لا يُوصف بالترك كما يُوصِّفُ خلقَه، ولكنَّه متى علم أنّهم لا يرجعون عن الكفر والضلال مَنَعَهُم المعاوَنة واللُّطف، وخَلَّى بينهم وبين اختيارهم**»[2]، وورد عن الإمام الصادق عليه السلام: « **لا جَبْرَ ولا تَفويض وَلكنْ مَنزِلةً بينهما**»[3].

هذه المسألة من المسائل المهمّة جداً وقاعدة جوهريّة في الحياة فلا يعقل أن يكون الإنسان مجبر على كلّ شيء فهذا ينافي الحكمة الإلهيّة من الابتلاء والامتحان، ولا يمكن أيضاً أن لا تكون لله عزّوجلّ قدرة وسيطرة على الإنسان، فهذا ينافي أنّ الله سبحانه وتعالى هو المهيمن على الكون، لكن بين هذين الأمرين بين الجبر وبين التفويض، إلّا أن المشكلة هي أنّ الناس قد تاهوا في هذا البحث وتركوا الجانب المهمّ فيه وهو حسن الاختيار، ذلك أنّ الإنسان حرٌّ ولكنه مسؤول عن اختياراته وأفعاله.

---

(١) البقرة : الآية ١٧

(٢) بحار الإنوار - ج٥ - ص:١١

(٣) الكافي - ج ١ - ص١٥٩ - ح ١٣

بين الاختيار وحسن الاختيار

وهنا يرد السؤال المهم: هل الجميع -ولأنهم يملكون الإرادة والاختيار- يحسنون الاختيار؟

الجواب: بالتأكيد لا، فالكثير من الناس بالرغم من أنّهم يملكون قدرة الاختيار إلّا أنّهم لا يختارون الأفضل والأحسن، إذ لا يخفى على المدقق أن هنالك فرقاً واضحاً بين القدرة على الاختيار والقدرة على حسن الاختيار، فكم من إنسان كان يملك الفرصة للوصول إلى الجنة بسهولة إلّا أنّه اختار طريق النار، وكم من إنسان استطاع أن ينتقل نتيجة لحسن اختياره من النار إلى الجنة، «إن في التأريخ البشري أمثلة عديدة تشهد على صدق هذه الحقيقة، فهذا هو ابن نبي الله نوح عليه السلام الذي ناداه أبوه في خضم الطوفان والعذاب العظيم الذي أخذ بإحاطة الأرض برمتها، قرر في لحظة واحدة خلق إرادة جديدة له، بالرغم من تناقضها مع الواقع المشاهد آنذاك، فكان من المغرقين.

وهذه آسية بنت مزاحم زوجة فرعون؛ المرأة التي لم يكن يعوزها شيء من النعيم والشهرة والقوة.. ولكنها استطاعت أن تخلق في نفسها الإرادة الحيّة القاضية بالاقتداء بنبي الله موسى عليه السلام.

وهذا عمر بن سعد قائد الجيش الأموي لقتال سيد

شـباب أهـل الجنّـة الإمـام الحسـين عليه السلام، الـذي بـات ليلتـه مسـهداً متضـارب الأفـكار والاختيـارات. فهـو كان عـلى مطلـق الحريـة في انتقـاء الخـير مـن الـشر، إلّا أنّـه في لحظـة واحـدة قـرر قـراره الحاسـم بالقضـاء عـلى الحسـين عليه السلام.

وفي قبالـة ذلـك كان الحـرّ بـن يزيـد الرياحـي، هـذا الرجـل العظيـم الـذي اتّخـذ قـراراً مخالفـاً بالمـرة لقـرار عمـر بـن سـعد. حيـث غـادر معسـكر الباطـل والتحـق- بـكل شـجاعة- بمعسـكر الإمـام الحسـين عليه السلام، فالرجـلان كانـا يعرفـان كلّ المعرفـة عظمـة الحسـين عليه السلام ومنزلتـه مـن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانـا يعرفـان أيضاً فظاعـة احتـمال مـا قـد يقدمـان عليـه مـن جريمـة شـنعاء»[1].

وهكـذا فـإنّ الإنسـان يقـف دائـماً أمـام مفـترق طـرق في كل صغـيرة وكبـيرة في حياتـه حتّـى بالنسـبة إلى اختيـاره للأمـور التـي تبـدو صغـيرة كاختيـاره لمفـردات ألفاظـه، فـإذا أراد النطـق بكلمـة مـا وجـب عليـه اختيـار الكلمـة المناسـبة و التفكـير فيهـا قبـل نطقهـا، فـلا يمكـن أن يقـول إنّنـي مجـبر عـلى قـول هـذا الـكلام دون ذاك، والسـبب أنّنـي عبـد مأمـور مـن قبـل الله سـبحانه وتعـالى لا إرادة لي ولا قـوّة، كـما ولا يمكـن لـه أن يقـول أيضـاً إنّنـي حـرٌ في قـول أيّ كلامٍ أريـد، وقـد بيّنـا بطـلان هـذا الجانـب سـابقاً في حديثنـا

(١) مبادئ الحكمة- المرجع السيد محمد تقي المدرسي- ص: ٢٢٨

عـن الجـبر والتفويـض، فـرُبَّ كلمـة أهلكـت أمـم، وربَّ كلمـة فرّقـت عوائـل ودمّـرت مجتمعـات، لـذا فـإنّ عـلى الإنسـان أن يكـون حـذراً في انتقـاء كلماتـه، ويختـار ألفاظـه بعنايـة كـما يقـول الله في كتابـه العزيـز: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1] إنّـه خطـاب للجميع بـأن يختاروا أجمـل الألفـاظ وأحسـن الكلـمات حينـما يتحدّثـون فيـما بينهـم، أو حينـما يخاطـب أحدهـم الآخـر.

عـلى الرغـم مـن وجـوب ملاحظـة الـكلام الـذي يصـدر عـن الإنسـان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[2] إلاّ أنّ الكثـير مـن البـشر يسـقطون في امتحـان الـكلام، فأقـلّ تبريـر يلقيـه عنـد خطئـه في اختيـار ألفاظـه قولـه: قـد خانـني التعبـير، إذاً التعبـير مـن الأمـور المهمّـة في إيصـال المـراد إلى الذهـن، أو في إيصـال المعنـى الحقيقـي مـن المعنـى المجـازي إلى المتلقّـي أو السـامع، لذلـك يقـال إنّ بعـض التعبـير منجـي وبعضـه مُهلـك.

موعظة من التاريخ

يُحكـى أنّ خياطـاً أحسـن صنـع قطعـة مـن القـماش، فلـم يجـد أفضـل مـن الملـك ليعـرض بضاعتـه عليـه، لينـال العطـاء الوفـير

(١) البقرة: الآية ٨٣

(٢) الأحزاب: الآيات ٧٠ - ٧١

جـزاء لماصنعتـه يـداه، فتوجـه إلى قـصر الملـك ومعـه بضاعتـه، وحينـما نظـر الملـك إليهـا انبهـر بـما خاطـه الخيـاط وأُعجـب بهـا كثـيراً، كـما أن جمـال ورونـق قطعـة القـماش قـد لفـت كلّ مـن كان في المجلـس، فالحياكـة متقنـة والألـوان متناغمـة، والقالـب راقـي جـداً، ولشـدّة روعـة تلـك القطعـة احتـار الملـك مـاذا يصنـع بهـا ومتـى يسـتخدمها، فأشـار عليـه أحدهـم بـأن يسـتخدمها عندمـا يُدعـى لـزواج شـخصية مهمـة، وقـال آخـر عنـد حضـورك احتفـالاً مهـماً، وهكـذا قـد انهالـت عليـه الاقتراحـات مـن كلّ حـدب وصـوب، ولكـنَّ الملـك التلفـت إلى الخيـاط وقـال: دعونـا نسـأل مـن قـام بحياكـة هـذه القطعـة الجميلـة فهـو أعـرف في أي شيء تصلـح، نظـر الخيـاط إلى الملـك وقـال لـه: «إنّ أفضـل وقـت لاسـتخدام هـذه القطعـة الجميلـة هـو عنـد موتـك تزيّـن بهـا جنازتـك»

لقـد أحسـن أحسـن صنـع تلـك القماشـة، ولكنـه أسـاء التعبـير في كلامـه، فأوصلـه ماقـال إلى القتـل، حيـث أمـر بـه الملـك فسـجن وقتـل.

إذن لا يكفـي أن يتقـن الإنسـان عمـلاً مـا بـل يجـب عليـه أن يتقـن فـن الترويـج لعملـه، ولا بـد أن يحسـن اختيـار الكلـمات والتعبـير في المواقـف الخاصـة التـي يمـرّ بهـا.

الإسلام والدعوة إلى حسن الاختيار

يدعو الإسلام الإنسان إلى التركيز على حسن الاختيار في مجالات الحياة كافة، وخصوصاً في القضايا التي لها تأثير مباشر على حياته، ففي تلك القضايا لا بدّ للإنسان من الاختيار بدقة وعناية وتأني، فمثلاً عند رغبة الإنسان في الزواج عليه أن يختار بدقة وعناية زوجته المستقبلية فيختار الزوجة الصالحة المؤمنة المطيعة، وقد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام التأكيد على هذا الجانب فعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**ما أفاد عبدٌ فائدة خيراً من زوجة صالحة**»[1]، وورد أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من سعادة المرء الزوجة الصالحة**»[2]، كما يجب على الزوجة أيضاً أن تحسن اختيار الزوج فتختار زوجاً مؤمناً صالحاً خلوقاً، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»[3].

ومن القضايا التي تستوجب حسن الاختيار أيضاً، اختيار الوظيفة فيجب على الإنسان أن يحسن اختيار عمله وخصوصاً عندما يكون للعمل تأثير مباشر عليه، سواء من الناحية

(١) وسائل الشيعة ج٢٠ ص:٩٣

(٢) أصول الكافي ج٥ ص:٣٢٧

(٣) أصول الكافي ج٥ ص:٣٤٧

الدينيـة أو الإجتماعيـة أو النفسـية.

عامل الزمان والمكان

إنّ مـن الأمـور التـي لهـا تأثـير حقيقـي في السـلوك العمـلي للإنسـان، والمتلازمـة مـع حسـن الاختيـار: عامـل الزمـان والمـكان؛ فـلا بـدّ للإنسـان أن يختـار الزمـان والمـكان المناسـبين في كلّ عمـل ينـوي القيـام بـه، فـلا يمكـن للصيـاد التوجـه إلى البحـر ليؤمّـن رزقـه في الوقـت الـذي تشـتد فيـه العواصـف و الأمـواج، فلـكلّ عمـلٍ زمـان خـاص بـه وإن أخـلَّ المـرء بهـذا الزمـان لـن يحصـل عـلى النتيجـة المرجـوة مـن عملـه، كمـن يـزرع في غـير موسـم الـزرع ويرجـو أن يحصـد في زمـن الحصـاد، إنّ ذلـك غـير ممكـن فلـكلّ زرع زمـان خـاص بـه وتربـة خاصـة، يـزرع في وقـت معـين ويحصـد في وقـت معـين، إن تقـدَّم عـلى الوقـت أو تأخـر عنـه في موسـم الـزرع سـيكون عملـه بـلا فائـدة، وإن تقـدّم أو تأخـر عـلى موسـم الحصـاد لـن يجنـي مـن زرعـه شـيئاً، إذن لا بـدّ للإنسـان مـن معرفـة الزمـان والمـكان المناسـبين لـكل عمـل، متـى يـزرع؟ ومتـى يبنـي؟ وأيـن يعمـل؟ ومتـى يعمـل؟ فهـذه قضايـا مرتبطـة بحسـن التقديـر وحسـن الاختيـار، وحتـى في العبـادات التـي فرضهـا الله عزّوجـلّ هنالـك أوقـات محـددة تـرى هـل يمكـن تصورذهـاب أحدهـم إلى الحـج في وقـتٍ يعـود النـاس منـه،

فللحج وقت خاص ومكان خاص.

من جوانب حسن الاختيار: حسن استثمار المال، ومعرفة متى وأين يستثمر المال، وأيضاً حسن استثمار شخصية الإنسان فشخصية الإنسان كريمة عند الله سبحانه وتعالى،فـ«**إنّه ليس لأنفسكم ثمنٌ إلاّ الجنّة، فلا تَبيعوها إلاّ بها**»[1] كما يقول الإمام عليّ عليه السلام، يجب على الإنسان أن يحافظ على شخصيته وكرامته، فلا يبيعها بأبخس الأثمان، ولا يهلكها باتباع الآخرين كما عبّر عن ذلك ربّ العالمين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[2]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3]،

أو كما يقول بعضهم ليبرر انخراطه في آراء وأفكار الآخرين: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾[4]، أو «**حشر مع الناس عيد**» وما ذلك إلا دليل على عدم القدرة على التفكير وعدم القدرة على حسن الاختيار.

(١) بحار الأنوار - ج ١٣ -ص٧٨ - ح ٧١

(٢) البقرة: الآية ١٧٠.

(٣) لقمان: الآية ٢١

(٤) المدثر: الآية ٤٥

الحياة بين الثروة و النجاح الحقيقي

لا شك أنّ الإنسان في بعض المواقف في حياته يقع بين خيارين: خيار المال و النجاح الظاهري وبين الفلاح و النجاح الحقيقي ، فالسؤال هنا ماذا نختار؟ وكيف نختار؟

هنالك من يؤمن بأنّ المال هو أهمّ شيء في الحياة وإن تخلّى من أجل هذا المال عن دينه ومبادئه، وهذه -بلا شك - نظرة خاطئة وغير صحيحة، يقول الله عزّوجلّ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾[1]، ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **إنّما أتخوف على أمّتي من بعدي ثلاث خلال: أن يتأوّلوا القرآن على غير تأويله، أو يبتغوا زلة العالم، أو يظهر فيهم المال حتى يطغوا ويبطروا** »[2]، ولذلك لابدّ أن يحسن الإنسان الاختيار في هذه الحياة، فإمّا أن يختار ثروة زائلة مع خسارة جنة عرضها السموات و الأرض، أو أن يختار الفوز بالجنة والخلود الأبدي.

ونحن بلا شك لا نذم امتلاك الثروة والمال، بل بالعكس فـ « **نعم العون على تقوى الله الغنى** »[3] كما يقول رسول

(١) الهمزة: الآيات ١-٢-٣

(٢) ميزان الحكمة - ج ٣ - ص ٢٣٠٢

(٣) مستدرك الوسائل: ج١٣ -ص ١٥ -ح ١٤٥٩٨

الله ﷻ، وإنّما الكلام فيما لو تعارض المال مع الآخرة، أو كسب المال بالحرام والمعصية.

رابطتنا بأهل البيت عليهم السلام:

لو نظرنا إلى رابطتنا بأهل البيت عليهم السلام وسألنا أنفسنا ما الذي يربطنا بأهل البيت عليهم السلام؟ هل هي الثروة؟ أم هي النجاحات في معناها الضيق؟ هل نحن نتبعهم لأنهم مصدر للثروة؟!.

بداية نقول: صحيح أن أهل البيت عليهم السلام هم سبب النجاح، وهم سبب الثروة و الغنى، ولكن الأهمّ من ذلك أنّهم سبب النجاة والفلاح، ولذلك نحن نقرأ في الزيارة الجامعة: «**اللّهُمَّ إِنِّي لَوْ وَجَدْتُ شُفَعاءَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الأَخْيارِ الأَئِمَّةِ الأَبْرارِ لَجَعَلْتُهُمْ شُفَعائِي**» وفي دعاء آخر في الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين عليه السلام: «**اللّهُمَّ أَدْخِلْنِي فِي كُلِّ خَيْرٍ أَدْخَلْتَ فِيهِ مُحَمَّداً وَآلَ مُحَمَّدٍ، وَأَخْرِجْنِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ أَخْرَجْتَ مِنْهُ مُحَمَّداً وَآلَ مُحَمَّد**»، فرابطتنا الحقيقيّة بأهل البيت عليهم السلام ليست رابطة مال أو ثروة أو نجاح بالمعنى الضيّق في هذه الدنيا، بل إنّ المؤمنين يتخلون عن أموالهم من أجل نصرة أهل البيت عليهم السلام، ويقبلون المعيشة الضنكة حبّاً لأهل البيت عليهم السلام، ألم يقل إمامنا العسكري عليه السلام: «**الفقر**

معنا خير من الغنى مع غيرنا، ونحن كهف لمن التجى، ونور لمن استضاء بنا، وعصمة لمن اعتصم، من أحبنا كان معنا في السنام الأعلى، ومن انحرف عنا فإلى النار »[1].

إنّ في قلب كلّ مؤمن حبّ أهل البيت عليهم السلام ومودتهم، وحبّهم سلام الله عليهم لا يقاس بأيّ مقياس ولا يقدّر بأيّ ثمن، فحبهم يمنح النجاح ويجلب الثروة، ويكفينا شاهداً على ذلك هذه الحسينيّات والمواكب الحسينيّة والخدمات وهذا الإنفاق الكبير في سبيل حب محمد وآل محمد عليهم السلام وفي سبيل حفيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمام الحسين بن علي عليه السلام، ولو أنّك سألت القائمين على هذه الخدمات: (من أين لكم هذه الثروة؟) سيجيبونك: (إنّها من بركات الحسين سلام الله عليه، كنّا فقراء فلذنا بهم فأعطونا).

وهنالك مسألة أخرى نلاحظها في المجتمع حينما يطلب من الناس التبرع لقضية ما نراهم يتبرعون، ولكن ليس بالمقدار الذي يكون فيه التبرع لأهل البيت عليهم السلام، فحينما يتعلق الأمر بدائرة الحب تحت راية الحسين عليه السلام نلاحظ أنّ العطاء مختلف، والجميع يساهم بل ويسارع في الخيرات.

(١) بحار الأنوار - ج ٦٩ - ص ٤٤

وهديناه النجدين

لم يجبر الله سبحانه وتعالى العبد في خياراته، بل العكس تماماً لقد هداه السبيل وأعطاه مطلق الخيار: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[2]، ولو أجبر الله سبحانه وتعالى العبد على نوع الاختيار لما كان هنالك معنى وقيمة للابتلاء والامتحان في الدنيا، ولا للجزاء في الآخرة، فالله سبحانه وتعالى أعطى للناس مطلق الحق في أن يختاروا الطريق الذي يرغبون فيه.

ملكة حسن الاختيار

من أين يحصل الإنسان على ملكة القدرة على الاختيار الحسن؟

لقد بيّنا أنّ الله عزّوجلّ جعل الإنسان مختاراً ولم يجبره على شيء، إلّا أن هذه القدرة على الاختيار سلاح ذو حدين، فهي قد تكون نعمة لصاحبها إن اختار طريق الصواب و الحق، وقد تكون نقمة على صاحبها فيما لو اختار طريق الضلال و الباطل، ولذلك فإنّ حسن الاختيار أمر ضروري ومهم

(١) الإنسان: الآية ٣

(٢) الشمس: الآية ٧-٨

للإنسان في حياته، خاصّة وأنّه يتعرض للكثير من الأحداث والتجارب والتي تستوجب منه اتّخاذ قرارات مصيريّة قد تغيّر حياته، مما يعني أن اختياراتنا وقراراتنا سبيلنا الوحيد لتحقيق النجاح.

وهنا نذكر بعض العوامل التي تساعد الإنسان على امتلاك ملكة حسن الاختيار ومنها:

١. الاستقلال الداخلي:

من الأمور المهمّة التي تعطي الإنسان القدرة على حسن الاختيار هو الاستقلال الذاتي، فمع وجود هذا الاستقلال يمكن أن يكون له رأي صائب، وقرار حكيم، ونظرة صحيحة للأمور والقضايا، وبدون الاستقلال الذاتي لا يمكن له أن يعيش حسن الاختيار، فمن لايملك قراره حتّى وإن توصل إلى الخيار السليم إلّا أنّه قد لا ينتخبه نتيجة لتدخّل الآخرين في قراراته، كما لو أنّ القبيلة تتدخل في قرارات أفرادها، أو الحاكم الظالم يتحكّم في اختيارات الناس، حينها لن يتمكّن الإنسان من العمل باختياراته السليمة، يقول الإمام السجاد عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق «**وَ مَتِّعْنِي بِهُدًى صَالِحٍ لَا أَسْتَبْدِلُ بِهِ، وَ طَرِيقَةِ حَقٍّ لَا أَزِيغُ عَنْهَا، وَ نِيَّةِ رُشْدٍ لَا أَشُكُّ فِيهَا**».

إذن هذا الاستقلال ينبع من داخل الإنسان، ويجب عليه

أن يكـون هـو صاحـب القـرار في كلّ صغـيرة وكبـيرة، «**لَيـسَ العاقِـلُ مَـن يَعـرِفُ الخَـيرَ مِـنَ الـشَّرِّ وَلكِـنَّ العاقِـلَ مَـن يَعـرِفُ خَـيرَ الشَّرَّيـنِ**» [1] كـما يقـول أمـير المؤمنـين عليه السلام.

نحـن حينـما نذكـر الاسـتقلاليّة في اتّخـاذ القـرار لا نلغـي دور الاسـتـشـارة فهـي بـلا شـك مهمّـة جـداً كـما يقـول أمـير المؤمنـين عليه السلام: «**أعقـلُ الناس مَن أطـاع العقـلاء**»[2]، و«**لا ظهـير كالمشـاورة**»[3]، و«**مـا حـار مـن اسـتخار ولا نـدم مـن استشـار**»[4]، ولكـن يبقـى القـرار الأول والأخـير للإنسـان فهـو الـذي يجـب أن يختـار، كـما أنّـه يجـب أن يكـون مسـؤولاً عـن اختيـاره، بعيـداً عـن أي إمـلاءات مـن أطـراف أخـرى.

٢. إرادة التحدي والصمود:

«إن الإنسـان يحتـاج إلى إرادة قويـة لكـي يصمـد أمـام التحديـات والفتـن في حياتـه ويحسـن اختياراتـه، وهـذه الإرادة لا توجـد عنـد الإنسـان في لحظـة واحـدة، وإنـما بالتدريـج والتربيـة، فكـما أن البحـر الكبـير الـذي يمتـد طـولاً وعرضـاً يتكـون مـن القطـرات الصغـيرة، وهكـذا الصحـراء المترامية الأطـراف تتكـون

(١) نهج البلاغة - الخطبة ٩١.

(٢) غرر الحكم ٥٢

(٣) وسائل الشيعة - ج١٢- ص٤٠

(٤) وسائل الشيعة - ج٨ - ص:٧٨

مـن ذرات الرمـل، فكذلـك إرادة الإنسـان تُصنـع مـن مجمـوع إرادات صغـيرة، فهـو سـيتمكن مـن اتّخـاذ الموقـف الصعـب إذا مـارس المواقـف الأقـل منـه في حياتـه.

وكمثـال عـلى موقـف الإنسـان مـن الفتنـة الكـبرى واتصـال ذلـك بمواقفـه السـابقة وتأثـيره عـلى اختياراتـه دعنـا نسـتعرض قصـة رجلـين: أحدهمـا سـقط في الفتنـة، بينـما انتـصر الآخـر.

المثـال الأول: هـو عمـرو بـن العـاص لـمّا انتهـى إليـه كتـاب معاويـة وهـو بفلسـطين، استشـار ابنيـه عبـد الله ومحمـداً، وقـال: يـا ابنَـي، إنّـه قـد كان منّـي في أمـر عثـمان فلتـات لم أسـتقبلها بعـد، وقـد كان مـن هـروبي بنفـسي حـين ظننـت أنّـه مقتـول مـا قـد احتملـه معاويـة عنـي، وقـد قـدم عـلى معاويـة جريـر ببيعـة عـلي، وقـد كتـب إليَّ معاويـة بالقـدوم عليـه، فـما تريـان؟ فقـال عبـدالله وهـو الأكـبر: أرى والله أنّ نبـيّ الله قبـض وهـو عنـك راضٍ، والخليفتـان مـن بعـده كذلـك، وقُتـل عثـمان وأنـت غائـب، فأقـم في منزلـك، فلسـت مجعـولاً خليفـة، ولا تزيـد عـلى أن تكـون حاشـية لمعاويـة عـلى دنيـا قليلـة، أوشـكتما أن تهلـكا فتسـتويا فيهـا جميعـاً، وقـال محمـد: أرى أنّـك شـيخ قريـش، وصاحـب أمرهـا، فـإن ينـصرم هـذا الأمـر وأنـت فيـه غافـل، يصغـر أمـرك فالحـق بجماعـة أهـل الشـام، واطلـب بـدم عثـمان، فإنّـك بـه تسـتميل إلى بنـي أميـة.

فقال عمرو: أمّا أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وأمّا أنت يا محمّد فقد أمرتني بما هو خير لي في دنياي، ثمّ دعا غلاماً له يقال له وردان، وكان داهية، فقال له عمرو: يا وردان احطط، يا وردان ارحل، يا وردان احطط، يا وردان ارحل، فقال وردان: أما إنّك إن شئت نبأتك بما في نفسك، فقال عمرو: هات يا وردان، فقال: اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت مع عليٍّ الآخرة بلا دنيا، ومع معاوية الدنيا بغير آخرة، فأنت واقف بينهما، فقال عمرو: ما أخطأت ما في نفسي، فما ترى يا وردان، فقال: أرى أن تقيم في منزلك، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك، فقال عمرو: أالآن حين شهرتني العرب بمسيري إلى معاوية؟![1].

وذهب عمرو إلى معسكر معاوية تاركاً آخرته لدنياه، ثمّ لـمّا دنت منه الوفاة وكان في فلسطين قال لمن حوله: احملوا جسدي إلى صحن الدار، فلمّا حُمل وطُرح على الأرض نظر إلى السماء فقال: لستُ بذي عذر فأعتذر، ولا بذي قوّة فأنتصر، فافعل بي ما تشاء، ومات.

المثال الثاني: ونجد في مقابل هذه الهزيمة صورة للصمود

(١) الإمامة والسياسة: ج ١ ص ١١٧ تحقيق الشيري.

أمام فتنة الحياة، عند عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي وقف مع الحقّ في حرب صفين وهو يناهز التسعين من العمر، ولـمّا رأى الإمام علي عليه السلام شيخوخته أمره أن يشد ظهره، وحواجب عينيه حتّى لا يبدو للناس ضعيفاً، فبرز رضي الله عنه للقتال، وقال مخاطباً عمرو بن العاص: «يَا عَمْرُو بِعْتَ دِينَكَ بِمِصْرَ فَتَبّاً لَكَ فَطَالَ مَا بَغَيْتَ الإِسْلَامَ عِوَجاً».

ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ رِضَاكَ فِي أَنْ أَقْذِفَ بِنَفْسِي فِي هَذَا البَحْرِ لَفَعَلْتُ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ رِضَاكَ فِي أَنْ أَضَعَ ظُبَةَ سَيْفِي فِي بَطْنِي ثُمَّ أَنْحَنِيَ عَلَيْهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ ظَهْرِي لَفَعَلْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْلَمُ مِمَّا عَلَّمْتَنِي أَنِّي لَا أَعْمَلُ عَمَلًا اليَوْمَ هَذَا هُوَ أَرْضَى لَكَ مِنْ جِهَادِ هَؤُلَاءِ القَاسِطِينَ وَ لَوْ أَعْلَمُ اليَوْمَ عَمَلًا هُوَ أَرْضَى لَكَ مِنْهُ لَفَعَلْتُهُ»[1]، وحارب حتّى استشهد مع الحق.

ولكن! لماذا اختار عمار رضي الله عنه هذا الموقف، بينما اختار ابن العاص الهزيمة أمام الفتنة؟

والجواب: لأن عمار كان دائماً مع الحق، وحتّى في دقائق حياته، ومنذ إيمانه بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم، حتّى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَا خُيِّرَ عَمَّارٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ- كلاهما في الله-إِلَّا اخْتَارَ**

(١) بحار الأنوار - ج ٣٢ - ص ٤٨٩.

أَشَـدَّهُمَا»[1]

وربـما عنـاه الإمـام عـلي عليه السلام بقولـه: «**كَانَ لِي فِيمَا مَـضَى أَخٌ فِي الله وكَانَ يُعْظِمُـهُ فِي عَيْنِـي صِغَـرُ الدُّنْيَـا فِي عَيْنِـهِ... وكَانَ إِذَا بَدَهَـهُ أَمْـرَانِ يَنْظُـرُ أَيُّهُـمَا أَقْـرَبُ إِلَى الهَـوَى فَيُخَالِفُـهُ**»[2]

فـلا عجـب إذن أن تنتهـي حيـاة هـذا العظيـم بالشـهادة، بينـما يمـوت ابـن العـاص عـلى فـراش الذنـب والرذيلـة، لأنّ ابـن العـاص كان يخشـى مـن شـهرة العـرب أكثـر مـن خوفـه مـن الله، وكان يبحـث عـن الرئاسـة قبـل سـعيه لـرضى ربّـه، إنّ تلـك الصفـات التـي تكرّسـت في نفسـه عـبر عـشرات مـن المواقـف الانهزاميّـة أمـام ضغـوط الدنيـا وإغراءاتهـا كوّنـت أرضيـة هزيمتـه المصيريّـة باختيـار الدنيـا عـلى الديـن.

ومـن هنـا نعـي أهميّـة المواقـف اليوميّـة ومـدى تأثيرهـا عـلى مسـتقبل الإنسـان، فـلا ريـب أن الاختيـارات اليوميـة للأصعب في الله، هـي التـي صنعـت إرادة عـمار حيـث التـزم بالخيـار الصعـب في نهايـة الخـط، بينـما صنعـت الاختيـارات البسـيطة للخطـأ الهزيمـة الحاسـمة أمـام الفتنـة الكـبرى في حيـاة الآخـر»[3].

(١) بحار الأنوار - ج ٢٢ - ص ٣٢٠.

(٢) نهج البلاغة: حكمة: ٢٨٩

(٣) من هدى القرآن - ج٩ - ص: ٩٧ - بتصرف

٣. تفكيك الصور المشوهة:

من الطبيعي أن تعرض على الإنسان في حياته الكثير من القضايا والصور سواءٌ التاريخية منها أو الحاليّة أو حتّى المستقبليّة، تعرض أمامه على شكل صور وقوالب جاهزة، ولكلّ ناقل لتلك القضايا أو الصور رأي خاص به ووجهة نظر سينقلها للمتلقّي، وليس بالضرورة أن تكون وجهة النظر هذه مطابقة للواقع الحقيقي والفعلي، وإنّما بحسب رأيه ومايريد أن يوصله للمتلقّي من أفكار، فتمرّ على الإنسان مجموعة من الصور بعضها يكون حقيقياً والآخر مشوهاً ومشوشاً وهنا يقف المتلقي وهو السامع في موقع الاختيار، فماذا يختار من هذه الصور وكيف يختار؟

ولأنّ الناس ليسوا على سليقة واحدة فبعضهم سيختار الصورة الظاهريّه الكاذبة على الجوهر الحقيقي فيسقطون في الاختبار لأن الظاهر عادة ما يكون بريقه أقوى ولمعانه أبهر وإن لم يكن حقيقياً، فيعتبرون ما مظهره جميل وأنيق هو الصحيح، بالإضافة إلى دور الدعاية والإعلان في إظهار الشكل الخارجي بتلك الحلة البرّاقة.

إذن فكما أنّ للصورة المشوشة التأثير القوي في أذهان الناس كذلك فإنّ الدعاية لها التأثير القوي والقوي جداً

على خيارات الناس، كدعاية يزيد بن معاوية لنفسه ودعاية الأمويين لأنفسهم، فلقد كانت قوية جداً لدرجة أن تأثيرها يمتد إلى يومنا الحاضر، فإنّك ستجد في عصرنا الحالي الكثير من أبناء الأمة الإسلاميّة يرفضون الإذعان إلى الحقيقة الواضحة في قضية الإمام الحسين عليه السلام، ويرفضون الاعتراف بالجرائم التي ارتكبها يزيد بحق الإمام عليه السلام، بل -وللأسف- لازالت الدول الإسلامية تدرّس أبناءها في المدارس أنّ الحسين عليه السلام خارجي خرج على الخليفة الشرعي وقُتل، وحينما يقوم أحد بنشر الحقائق أو يلعن يزيد بن معاوية تثور ثائرتهم، ويرفضون لعنه، بالرغم من أن القرآن الكريم يلعن الظالمين، يقول عزّوجلّ: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]، على الرغم من ذلك يأتيك الرفض، لماذا؟ لأن الصورة التي وصلت إليهم لم تكن حقيقيّة وإنّما صورة مشوّهة من صور التاريخ، وقد لعبت الدعاية المضادة فيها دوراً كبيراً في تلميع صورة يزيد بن معاوية، والقضية هنا ليست قضية سنيّة أو شيعيّة بل هي إسلاميّة إنسانيّة بالنظر إلى الجريمة الكبرى التي قام بها يزيد بن معاوية بحق الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته، ولكن مع ذلك كلّه الناس أُسَراء أو

(١) الأعراف: الآية ٤٤

(٢) البقرة: الآية ٨٩

أسرى الصورة والتاريخ والدعاية، الناس أسرى منطق الغلبة والقوّة والسطوة و الكثرة الغالبة.

ويمكن طرح مثال آخر وهو أمريكا ففي وقتنا الراهن تسارع الدول والمجتمعات بفئاتها كافة للتعامل مع أمريكا، على الرغم من أن أمريكا لا تمثل القيم والمبادئ الحقّة في عالم اليوم، إلّا أنّنا نرى مسارعة العالم ليكون في صفّها وفي جانبها، بخلاف من يعلم حقيقة أمريكا ودورها ومشروعها الشيطاني في بلادنا، فلم تأخذ تلك الصور اللمّاعة والبرّاقة في نفسه ما أخذت من البقية، بطبيعة الحال البشر يؤخذون بالصورة الملمعة لا بالجوهر الخفي، لذلك نشاهد الأغلب من الناس يتبعون الباطل باتّباعهم لتلك الصور المشوهة، ونعني بالمشوهة الصور التي شوهت الحقيقة ولمّعت الكذب والباطل، وهذا حتماً مما يسلب الإنسان القدرة على الاختيار وحسن الاختيار فعن الإمام الحسين عليه السلام: «**لا يَكْمُلُ الْعَقْلُ إلاّ بِاتِّباعِ الْحَقِّ**»[1]

٤. عدم الاستسلام للتبريرات الواهية:

كثيراً ما نرى أن الناس لا يتحققون مما يسمعونه، فبمجرد أن يسمع أحدهم كلمة ما من فلان من الناس تراه يبني

(١) أعلام الدين ص:٢٩٨

عليها موقفاً ويبني عليها رأياً، فاتخاذ الموقف على عجالة دليل على عدم القدرة على الاختيار، أو خلل في توازنه الداخلي فيتأثر من أيّ كلمة يسمعها، فعدم الاستقلال الداخلي سيقود الإنسان إلى أن يتخذ المواقف بحسب الحالة التي يعيشها، ثمّ يسوق التبريرات الواهية، والتي بمرور الزمن تشكل حاجزاً أمام اختياراته، فيدّعي بأن اختيار الزوجة ليس بيده، واختيار الوظيفة ليس بيده، واختيار الأصدقاء ليس بيده، وكلّ ذلك يسلبه القدرة على الاختيار.

على الإنسان دائماً أن يكون قادراً على فهم الأمور ومعالجتها بالشكل الصحيح وذلك يتم بالخيار الصحيح، بعيداً عن العصبيات والجاهليات والأعراف البالية التي يمكن أن توصل الإنسان إلى التهلكة في بعض الأحيان، عندما يقول الإنسان بأن الزمان والظروف هما اللّذان أوصلاني إلى هذه الوظيفة أو تلك، فهل يعقل أن يحتجّ الإنسان بعمل يوصله إلى النار كالعمل في بيع الخمور مثلاً، فيقول هذا العمل الذي أوصلني إليه زماني وإن لم أعمل سأموت جوعاً، أو من يعمل في مكان فيه إعانة للظالم على المظلوم، أو يعمل في شركة تنصب على الناس وتسلب منهم أموالهم، كالشركات الوهميّة أو شركات النصب والاحتيال أو ماشابه ذلك، وهو على علم بها، فهل يملك القدرة على رفض مثل هذه الوظائف أم أنّه

يسوق المبررات الواهية ليقنع نفسه بما هو فيه.

الاختيار بين الحق والباطل

كلّ إنسان في هذه الدنيا مسؤول عن خياراته، تارة تكون هذه الخيارات فكريّة وتارة اقتصاديّة وتارة سياسيّة، حتّى في مجال السياسة لا بد أن يكون هنالك اختيار حرّ خاص بالإنسان لا فرض بالقوّة و التهديد، ومن هنا جاء الكلام عن الاستقلال السياسي، حيث تعدد الأحزاب وحرية الرأي والتعبير، كلّ ذلك لكي يمتلك الإنسان الاستقلاليّة في رأيه وفي خياراته، ويمكنه أن يختار بإرادته لا بفرض رأي الآخرين عليه، حتى في العبادة أيضاً أنت حر تختار الرب الذي تريد، ولم يفرض الله عزّوجلّ عليك عبادته بالإجبار ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1]، ولكن الإنسان العاقل يرى أن الله عزّوجلّ هو الرب الذي يستحق العبادة، ولذلك يختاره بكل حريّة وعقل، وفي ذلك يقول الإمام عليه السلام: «**ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك**»[2]

كما أن الناس لهم دوافعهم المختلفة في العبادة كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً**

(١) البقرة: الآية ٢٥٦

(٢) بحار الأنوار - ج٦٧ - ص:١٨٦

عَبَـدُوا اللهَ شُـكْراً فَتِلْكَ عِبَـادَةُ الْأَحْـرَارِ»[1]، كـما يوجـد أنـاس يصلّـون لله سـبحانه وتعـالى فقـط عندمـا يجـدون رقيبـاً عليهـم، وعندمـا يختلـون بأنفسـهم نسـوا الله لأن التوجـه إلى الله سـبحانه لم يكـن بخيارهـم بـل بطلـب مـن الآخريـن، ومـن أجـل رضـا الآخريـن.

عاشوراء والدور المطلوب

في ظـل أجـواء شـهر محـرم الحـرام، وبالخصـوص في العـشرة الأولى منـه، نكـون جميعـاً في ضيافـة الإمـام الحسـين عليه السلام، عـلى الرغـم مـن اعتقادنـا بـأنّ كلّ يـوم عاشـوراء وكلّ أرض كربـلاء إلّا أنّ هـذه الأيـام لهـا وقـع خـاص في نفوسـنا، فنلتـفّ حـول الحسـين عليه السلام بـكل جوارحنـا، وفي محـرم يجـب عـلى الإنسـان أن يحـدد خيـاراتـه أيضـاً، فـهـذا الكـون كلّـه يصطبـغ بصبغـة الحسـين عليه السلام، والتـي هـي صبغـة الحـق، فـلا بـد لنـا مـن أن نتعلـم منـه الـدروس، ونسـتلهم مـن تضحياتـه في سـبيل ديـن الله وإقامـة شريعـة الله عزّوجـلّ العـبر والمواعـظ، فـلا يمكـن أن نكـون مـع الحسـين عليه السلام ونحـن لا نجعـل الله رقيبـاً علينـا في خلواتنـا وخصوصـاً في مواعيـد صلاتنـا، علينـا في هـذه الأيـام أن نجعـل صلاتنـا عنـوان حسـينياتنا، ونفعـل كـما فعـل الإمـام عليه السلام

(١) وسائل الشيعة - ج١ - ص٦٣

في كربلاء على الرغم من مجريات الأمور إلّا أنّه صلى جماعة بأصحابه، وقدّم الشهداء من أجل هذه الصلاة، وعلينا نحن أيضا أن نجتهد لتكون صلاتنا جماعة في كل وقت، لنمرّن ونربّي أنفسنا على حسن الاختيار، ونحذر من أن نكون كما عبّر الله في قرآنه العظيم: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[1] وضلوا وابتعدوا ولم يحسنو صنعاً في خياراتهم، أو سقطوا في امتحان الخيارات الصحيحة والمواقف السليمة، أو ابتعدو عن الطريق والمنهج القويم، أو كما ذهب البعض: ماشأننا والدخول بين السلاطين تكليفنا أن نذهب إلى ماذهب إليه الناس.

لنوجد في أنفسنا الاستقلال الداخلي من عمق أنفسنا نستقل لا من الخارج فقط، لم تكن المظاهر يوماً تدل على جوهر الإنسان الحقيقي، فترى مظهراً جميلاً وبثياب نظيفة وهندام يلفت الأنظار، ولكن راقب خياراته واختياراته في الحياة، ستجده فارغاً لا يقدر على السير بمفرده دون توجيه أو إملاءات من الآخرين، إنّ كل إنسان مسؤول عن خياراته وعن اتخاذه لمواقفه ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾[2]

(١) الحشر: الآية ١٩

(٢) الصافات: الآية ٢٤

مواقف من كربلاء

عندما نتحدث عن المواقف وحسن الاختيار لابد لنا أن نعرج على أنصار الحسين عليه السلام في كربلاء، هذه المواقف التي صنعت الفارق في حياتهم، ونقلتهم تلك النقلة التي يرجونها ويتمنّاها كلّ مؤمن على وجه المعمورة، هناك في كربلاء حيث تواجد ثلاثون ألف مقاتل أو أكثر، وهنا يتساءل البعض هل من المعقول أن يكون كل هذا العدد على باطل، وثلّة قليلة تعدادها ثلاثة وسبعون شخصاً على حق؟.

هنا تكمن مشكلة الكثير من المجتمعات التي تقيس الأمور بمنطق الكثرة والقلّة والأكثريّة والأقليّة، فنجد ذلك على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي، إن هذا المنطق منطق فاسد، فليست الأكثريّة دوماً على حق، والله سبحانه وتعالى عندما تحدث عن الأكثريّة في القرآن الكريم لم يتحدث عن الأكثريّة باعتبارهم على الحق: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾[1]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[2]، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ

(١) الروم: الآية ٤٢

(٢) الفرقان: الآية ٥٠

ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[1]، ﴿ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾[2].

لقد انخدع الكثيرون بكثرة معكسر ابن زياد، مع أن نسب وتاريخ ابن زياد معروف لدى الناس، ومع ذلك كان خيار الكثيرين الوقوف إلى جانبه، مع علمهم بحاله ونسبه، فاختاروا القتال معه وفي معسكر يزيد ضد حفيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

لكن بالمقابل هنالك من حكّم عقله واختار طريق النجاة، فهاهم أصحاب الحسين عليه السلام سجلوا المواقف المشرّفة وصنعوا لنا النماذج المشرقة.

زهير والاستجابة لنداء الحق

زهير بن القين البجلي -مع أنه كان عثماني الهوى كما قيل- لكنه في موقف واحد استطاع أن يصنع الفارق في حياته بحسن اختياره، لقد أوجد في نفسه الاستقلالية الداخلية فاتّخذ موقفاً ينجيه، والتحق بالإمام الحسين عليه السلام.

يقول رجل من بني فزارة كان مرافقاً لزهير: كنا مع

(١) يوسف: الآية ١٠٣

(٢) الزخرف: الآية ٧٨

زهير بن القين البجلي حين أقبلنا من مكة نساير الحسين فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزل، فإذا سار الحسين تخلف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدم زهير حتى نزلنا يومئذ في منزل لم نجد بداً من أن ننازله فيه، فنزل الحسين من جانب ونزلنا في جانب، فبينا نحن جلوس نتغدى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين حتّى سلّم ثمّ دخل فقال:

يا زهير بن القين إنّ أبا عبد الله الحسين بن علي بعثني إليك لتأتيه، قال فطرح كلّ إنسان ما في يده حتّى كأنّ على رؤوسنا الطير.

فقالت امرأة زهير: أيبعث إليك ابن رسول الله ﷺ ثمّ لا تأتيه سبحان الله لو أتيته فسمعت من كلامه ثم انصرفت، قالت: فأتاه زهير بن القين فما لبث أن جاء مستبشراً قد أسفر وجهه، فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقدم وحمل إلى الحسين، ثمّ قال لامرأته: أنت طالق، الحقي بأهلك فإنّي لا أحبّ أن يصيبك من سببي إلّا خير، ثم قال لأصحابه: من أحبّ منكم أن يتبعني وإلّا فإنّه آخر العهد.

قال: ثمّ والله ما زال في أوّل القوم حتى قُتل.[1]

لقد صنع الفارق الذي ابتعد عنه الكثيرون بالتحاقهم

(١) مقتل الحسين (ع) - أبو مخنف الأزدي - ص ٧٤- ٧٥

بالكثرة، هذه هي القدرة على حسن الاختيار، تلك القدرة التي تركبك في سفينة النجاة وتوصلك إلى شاطئ الأمان، بعد أن كنت في الضلال.

الحر وحسن الاختيار

كان الحر بن يزيد الرياحي من شُرطة عبيد الله بن زياد وكان من وجوه وشجعان العرب، أرسله والي الكوفة عبيد الله بن زياد مع ألف فارس، لصدّ الإمام الحسين عليه السلام من الدخول إلى الكوفة، ولكن الحر في لحظة واحدة عندما حان وقت الاختبار واتّخاذ الموقف الصعب، استطاع أن يُحسن الاختيار وينتقل من جبهة الباطل إلى جبهة الحق.

لقد سأل الحرّ ابن سعد: أصلحك الله أمقاتل أنت هذا الرجل؟« ويقصد هنا الحسين بن علي عليه السلام ».

قال: أي و الله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس و تطيح الأيدي!.

هنا كان لزاماً على الحر أن يخيّر نفسه بين الجنة والنار، فالقوم مصرون على قتال حفيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد حان موعد الموقف الصعب، فقال الحر: إني و الله أخيّر نفسي بين الجنة والنار، و والله لا أختار على الجنة شيئاً و لو قُطّعت

وحُرقت، ثمّ ضرب فرسه ولحق بالحسين عليه السلام فقال له: جعلني الله فداك يا بن رسول الله أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، و سايرتك في الطريق، وجعجعت بك في هذا المكان، و الله الذي لا إله إلا هو ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبداً، و لا يبلغون منك هذه المنزلة؟!

إني قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربّي ومواسياً لك بنفسي حتّى أموت بين يديك، أفتَرى ذلك لي توبة؟

قال عليه السلام: **نعم يتوب الله عليك و يغفر لك، ما اسمك؟**

قال: أنا الحر بن يزيد.

قال عليه السلام: **أنت الحر كما سمتك أمك، أنت الحر إن شاء الله في الدنيا و الآخرة**[1].

وعندما حان موعد القتال برز الحر بن يزيد الرياحي وقاتل قتال الأبطال حتى قُتل بين يدي ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وصنع الفارق في حياته، كما صنعها أيضا وهب النصراني حين قتل بين يدي الحسين عليه السلام، وانتقل إلى ضفة الإيمان وخرج ليقاتل ويُقتل بين يدي ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويفوز فوزاً عظيماً.

(١) مقتل الحسين عليه السلام - أبو مخنف الأزدي - ص ١٢١- ١٢٢

عبيد الله الجعفي والتهرب من الحق

لقد نزل الإمام الحسين عليه السلام وهو متوجه إلى كربلاء في قصر بني مقاتل، فإذا هو بفسطاط مضروب ورمح منصوب وسيف معلق وفرس واقف على مذوده، فقال الحسين عليه السلام: لمن هذا الفسطاط؟

فقيل: لرجل يقال له عبيد الله بن الحر الجعفي.

فأرسل الحسين عليه السلام برجل من أصحابه يُقال له الحجاج بن مسروق الجعفي، فأقبل حتى دخل عليه في فسطاطه فسلّم عليه، فرد عليه السلام، ثمّ قال: ما وراءك؟

فقال الحجاج: والله! ورائي يا بن الحر! والله قد أهدى الله إليك كرامة إن قبلتها!

قال: وما ذاك؟

فقال: هذا الحسين بن علي عليه السلام يدعوك إلى نصرته، فإن قاتلت بين يديه أُجرت، وإن متّ فإنّك استشهدت!

فقال له عبيد الله: والله ما خرجت من الكوفة إلّا مخافة أن يدخلها الحسين بن علي وأنا فيها، فلا أنصره لأنه ليس له في الكوفة شيعة ولا أنصار إلّا وقد مالوا إلى الدنيا إلا من عصم الله منهم، فارجع إليه وأخبره بذاك.

فأقبل الحجاج إلى الحسين عليه السلام فأخبره بذلك، فقام الحسين عليه السلام ثمّ صار إليه في جماعة من إخوانه، فلمّا دخل وسلم وثب عبيد الله بن الحر من صدر المجلس، و جلس الحسين فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال عليه السلام:

أمّا بعد، يا بن الحر! فإنّ مصركم هذه كتبوا إليّ وخبروني أنهم مجتمعون على نصرتي وأن يقوموا دوني ويقاتلوا عدوي، وأنهم سألوني القدوم عليهم، فقدمت ولست أدري القوم على ما زعموا لأنهم قد أعانوا على قتل ابن عمي مسلم بن عقيل رحمه الله وشيعته، وأجمعوا على ابن مرجانة عبيد الله بن زياد يبايعني ليزيد بن معاوية، وأنت يا بن الحر فاعلم أن الله عزّوجلّ مؤاخذك بما كسبت وأسلفت من الذنوب في الأيام الخالية، وأنا أدعوك في وقتي هذا إلى توبة تغسل بها ما عليك من الذنوب، وأدعوك إلى نصرتنا أهل البيت، فإن أُعطينا حقنا حمدنا الله على ذلك وقبلناه، وإن منُعنا حقنا وركبنا بالظلم كنت من أعواني على طلب الحق.

فقال عبيد الله بن الحر: والله يا بن بنت رسول الله! لو كان لك بالكوفة أعوان يقاتلون معك لكنت أنا أشدهم على عدوك، ولكني رأيت شيعتك بالكوفة وقد لزموا منازلهم خوفاً من بني أمية ومن سيوفهم، فأنشدك بالله أن تحملني على هذه الخطة، فإن نفسي لم تسمح بعد بالموت، وأنا أواسيك

بكل ما أقدر عليه وهذه فرسي ملجمة، والله ما طلبت عليها شيئاً إلا أذقته حياض الموت، ولا طُلبت وأنا عليها فلُحقت، وخذ سيفي هذا فو الله ما ضربت به إلا قطعت.

فقال له الحسين عليه السلام: **يا بن الحر! ما جئناك لفرسك وسيفك، إنّما أتيناك لنسألك النصرة، فإن كنت قد بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا في شيء من مالك، ولم أكن بالذي اتّخذ المضلين عضداً، لأني قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: «من سمع داعية أهل بيتي ولم ينصرهم على حقّهم إلّا أكبّه الله على وجهه في النار»**.

ثمّ سار الحسين عليه السلام من عنده ورجع إلى رحله.[1]

لم يكن الإمام الحسين عليه السلام محتاجاً لسيف أو فرس بل كان يحتاج إلى أنصار يقاتلون معه عين الشرك، وكان مثل ابن الحر كمثل من عبر الله عنهم في قرآنه: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[2].

إنّ الله سبحانه وتعالى لا يريد أشخاصاً كهؤلاء، عندما يحين موعد الاختيار وتحديد الموقف الصحيح، تراهم يسقطون في الامتحان ويهربون، فكان عبيد الله بن الحر الجعفي من الذين خسروا الدنيا والآخرة.

(١) كتاب الفتوح - أحمد بن أعثم الكوفي - ج ٥ - ص ٧٣-٧٤

(٢) المائدة: الآية ٢٤

الذنوب
و العقد النفسية

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي
فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾[1]

من أجل أن تستقم حياة البشر وتستقر أنظمتهم الاجتماعية لابد لهم من اتباع تعاليم السماء، ولا بد لهم من الالتزام بالأوامر الإلهيّة والقيم الربانيّة؛ ذلك أنّ الله سبحانه و تعالى قد خلق الكون ضمن معادلات وسنن، إذا خالفها البشر فإنّهم سيقعون في دائرة المشاكل والفتن والفوضى والعقد النفسية والأزمات، فعدم اتّباع الناس لشرائع السماء وقوانين الله عزّ وجلّ، وتفضيلهم اتباع الهوى والشيطان والنوازع النفسيّة على أوامر السماء كلّ ذلك يوصلهم إلى الخسران واختلال نظام حياتهم، الإمام الصادق عليه السلام يوصي المؤمنين من شيعته: «**إنّما أصحابي من اشتدّ ورعه وعمل لخالقه ورجا**

(١) طه: الآية ١٢٤

ثوابـه» [1].

إنّ النـاس في عـالم اليـوم يبحثـون عـن السـلم والأمـن وعـن الاسـتقرار والطمأنينـة، ولكنهـم مـع ذلـك لا يحصلـون عـلى مـا يريـدون، مـا العلـة في ذلـك ياتـرى؟.

إنّ الأمـر يعـود للحالـة والظـرف والمنـاخ والبيئـة التـي يعيـش فيهـا الإنسـان، فالبعـض تتولـد لديـه نتيجـة لتلـك المناخـات التـي عـاش فيهـا عُقـد معينـة تتأصـل في نفسـه وتتجـذر في روحـه، فتُأثّـر فيـه الأثـر البالـغ، فالإنسـان الـذي يعيـش في بيئـة صالحـة لا بـد أن ينعكـس أثـر تلـك البيئـة عليـه وأن يكـون لهـا بصـمات ماديـة في نفسـه، كـما أن نفـس الأثـر وبالشـدة ذاتهـا سـيحصل لهـذا الإنسـان عندمـا يعيـش في بيئـة فاسـدة ومجتمـع منحـرف، إذن فـللبيئة الأثـر الكبـير عـلى مسـار وتوجـه النـاس، إذا اسـتقر الإنسـان في بيئـة هادئـة تَعَلّـمَ الهـدوء، وإن عـاش في بيئـة لينـة تَحـلَى بالأخـلاق، وإن اختلـط في جـوٍ يسـوده الاحـترام تعلّـم التعامُـل مـع الآخريـن بالـود واللطافـة والمحبـة، كـما أنّ الحالـة الاجتماعيـة و السـلوك الاجتماعـي المحيـط بالإنسـان يؤثّـر عليـه تأثـيراً كبـيراً، وهكـذا نـرى أن المجتمـع -بـكل مـا فيـه- لـه التأثـير الكبـير عـلى الفـرد، وبالفـرد صـلاح المجتمـع، وبالفـرد فسـاده.

(١) أصول الكافي -ج ٢ -ص ٧٧

التربية وبناء الفرد

يحكى أنه في يوم من الأيام حُكِم على شاب قوي البنية مفتول العضلات بالإعدام، ولم تكن أمامه أي فرصة للنجاة، مُنع من مقابلة الراغبين برؤيته إلا والدته، التي أُذن لها بأن تلتقي بولدها قبل إعدامه، عندما حصل الاجتماع أخذت الأم بالبكاء بصوت عال وبحرقة شديدة، وبدأت تلطم على وجهها تعبيراً عن حالة حزنها الشديد على فراق ولدها الذي سيعدم بعد فترة زمنية قصيرة، ولكن المدهش في الأمر بأن الابن طلب من أمه أن تكفّ عن البكاء والنحيب!! وأخبرها بأنّها هي السبب في كلّ ماوصل إليه، تفاجأت الأم من كلامه وطلبت منه توضيح ذلك، فأجاب الابن بألم وحرقة:

في صغري حيث الوعي القليل والإدراك البسيط لدي، سرقت بيضة من منزل جارنا وأتيت بها لكِ، فلم تسألي عن مصدرها ولا من أين أتيت بها، بل قمتي بتقبيلي وتشجيعي قائلة: أحسنت هذه هي «الشطارة»، هذه هي«الشجاعة»، ولم تكلّفي نفسك عناء استيضاح هذا الصنع مني.

وبعد مدة أحضرت لك أشياء أخرى وكنت أجد عندكِ القبول والفرح بما أحضره، مما جعل مني سارقاً كبيراً ولصاً محترفاً، وقد أوصلني هذا الأمر لحبل المشنقة ومنصة

الإعـدام هـذه.

لا شـكَّ أن السـنوات الأولى مـن عمـر الطفـل هـي أهـم مراحـل حياتـه، والتـي سـيكون لهـا الأثـر البالـغ عـلى توجهاتـه في المسـتقبل. يقـول الإمـام عـلي لولـده الإمـام الحسـن عليه السلام: «**إِنَّـمَا قَلْـبُ الحَـدَث كالأَرْضِ الخَالِيَـة، مـا أُلْقِـيَ فِيهَـا مِـنْ شَيءٍ قَبلتْـهُ، فَبَادَرْتُـكَ بـالأَدَبِ قَبـلَ أن يَقسُـو قَلبُـكَ، ويَشْـتَغلُ لُبُّـكَ**»[1].

وهكـذا نـرى أن للتربيـة دور كبـير في بنـاء الفـرد، فـإن كانـت تربيـة صالحـة كان الفـرد صالحـاً، وإن كانـت التربيـة فاسـدة ومنحرفـة كان الفـرد طالحـاً وفاسـداً.

البيئة وتحديد هوية المجتمع

البيئـة هـي: كلّ الظـروف والمكونـات والقـوى الخارجيـة التي يتعامـل معهـا الإنسـان ويسـتجيب لهـا، وهـي المحتـوى الـذي يتواجـد فيـه الفـرد، وهـو نظـام ديناميكـي مركّـب مـن مجموعـة مـن المكونـات الاجتماعيّـة والماديّـة[2].

للبيئـة والأجـواء المحيطـة الـدور الكبـير والأثـر العميـق في تشـكيل الحالـة النفسـية لـدى الفـرد، فمـن تربـى عـلى الصـدق

(١) وسائل الشيعة ٢١/ ٤٧٨

(٢) Wicker,A.W "An introduction to ecological psychology

والأمانة والمحبة والأخلاق والإخلاص وعلى التعاون والتعاضد، من الطبيعي أن ينشأ بطريقة سليمة صحيحة دون عقد ومشاكل نفسيّة، ويبدأ الأمر من داخل الأسرة وفي البيئة الخاصة بها، إن كانت البيئة الموجودة في داخل البيت غير مستقرة ومريضة، وتنتشر فيها العقد النفسيّة حيث الأب يقوم بضرب الأم، والأم تقوم بشتم الأب، أو عندما يتشاحن الأبناء فيما بينهم دون أن يحرّك الأب ساكناً، بل لعلّه يقوّي بعضهم على البعض الآخر، أو أن تكون البيئة خارج المنزل غير منضبطة وتقوم على تشجيع العدوان والعداوة والعنف والكره والبغض هذه البيئة والأجواء المحيطة يصنعان فرداً غير سوي يحمل العقد النفسيّة.

عندما يحصل عراك بين اثنين ترى هناك من يشجع على هذا الأمر بقوله خيراً فعلت!!. أو عندما تحصل خصومة بين عائلتين أو بين جارين أو بين عشيرتين، لعلك ترى هناك من يزيد الأمر تعقيداً بدل إصلاحه، عند ذلك سيتحول هذا الإنسان الذي يعيش في هذه البيئة إلى شخص عدائي وعدواني. فلبيئة الفرد وتربيته ونظرته للأمور المدخلية التامة في خلق الاجتماع.

ولذلك فإنّ عملية التغيير والإصلاح في المجتمع يجب أن تبدأ بأصل المجتمع وهو الفرد، فيبتدئ كل مصلح بصقل

النفوس، وتصفية النفوس الملوّثة في الكلّ فرداً فرداً. يقول ربّنا عزّوجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

إذن فالأجواء المحيطة لها التأثير الكبير على الفرد في مجالات حياته كافّة سواء على الصعيد الاجتماعي أو على الصعيد السياسي أو على الصعيد النفسي وغير ذلك، ولذلك يمكن أن نرى التأثيرات المختلفة للبيئة على الأفراد من خلال متابعة تصرفاتهم، فالطالب الذي يقوم بالتعامل بشكل مؤدب ومحترم مع أساتذته، وعند دخوله الصف يلقي التحية والسلام وعند خروجه يقوم بالاستئذان، نعلم بأن هذا الطالب يعيش في بيئة سليمة وحسنة، بينما طالب آخر لا يقوم بمثل هذه الأمور بل بالعكس تماماً يكون متمرداً في كلّ شيء وعلى كلّ شيء، فنعلم بأنّ هذا الطالب يعيش في بيئة ملوثة وغير سليمة.

إنّ تأثير البيئة لا يقتصر على الزمان الحاضر للناس بل يتعداه إلى المستقبل، فللبيئة المحيطة الأثر الكبير في تنمية ميول البشر وتوجّهاتهم المستقبليّة، فالناس أجناس وكلّ فرد له منهجه وأسلوبه وطريقته الخاصة في الحياة، وعندما تقوم البيئة على تشجيع ذلك الإنسان نحو ميل معين فإنّه سيندفع

(١) الرعد: الآية ١١

إليه، فعندما يقوم فرد ما بالسرقة ولا يجد رادع يردعه أو من يبيّن له خطأه وبشاعة ما ارتكبه والجريمة التي اقترفها، أو إذا زنى زاني -والعياذ بالله- ولم يجد من يحاسبه ويقيم عليه الحد، ويحذّره عواقب هذه الأمور، سيستمر هذا الفرد في سلوك المسار الخاطئ وبالتالي يصل إلى الانحراف الكبير مستقبلاً، وذلك سيؤدي إلى انجراف المجتمع ككلّ نحو الرذيلة وسيعمّ هذه البيئة الكفر والفساد والفسق والفجور.

وبالمقابل حينما يشجع المجتمع الفرد الذي يعمل العمل الصالح، نرى أن هذا الإنسان يكبر ويستمر في عمل الصالحات، أو حينما يشجع المجتمع الفرد على الإنتاج و الإبداع نرى في المجتمع مستقبلاً المبدعين و المخترعين، على عكس المجتمعات التي تقتل طموح الافراد وتحطم شخصيّاتهم منذ البداية.

البيئة والسلوك الإنساني

في بعض الأحيان تكون العادات السيئة المكتسبة متولدة من محيط الإنسان الخارجي، وهي رغبة من المتلقي بتعويض نقص ما يشعر به في داخله، أو قد تبدأ هذه العادة بهدف الاستكشاف أو الاستمتاع بلذّة معينة، وبعدها يصبح تكرار هذا الفعل آلياً ويتحوّل إلى عادة.

ومن المحتمل أن تظلّ هذه العادة مستمرّة بعد أن يختفي

الهدف من الفعل الأصلي، فالطفل عند تعرّضه للضرب المستمر داخل البيت مثلاً ستتولد في داخله حالة نفسيّة معينة نتيجتها إمّا أن يستسلم لأيّ حالة ضرب يتعرض لها في المستقبل من قبل أيّ شخص كان، أو أن يتحول إلى فردٍ عدائي قاسي القلب متجبر متسلط على الآخرين، بخلاف لو أنّ هذا الطفل قد تغذّت روحه ونفسه على الحب والعطف، عندما يكبر سيولِّد هو أيضاً الحنان والحب والعطف وسيزرع الخير في كلّ مكان يتواجد فيه ويصل إليه، من هنا أكَّدت روايات الإسلام على ملء الجانب العاطفي، كما نلاحظ ذلك في كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «**وجدتك بعضي، بل وجدتك كلّي، حتى كأنَّ شيئاً لو أصابك أصابني، وكأنَّ الموت لو أتاك أتاني**»[1].

لقد أكّدت الدراسات والنظريات في مجال علم النفس أهمية البيئة المحيطة بالإنسان في اكتساب وتعلّم السلوك، ويعرّف العلماء السلوك الفردي بقولهم: «هو كل ما يقوم به الفرد من أفعال وتصرفات تعبّر عن شخصيّته، وكلّ ما يتعلق به من معارف وخبرات وثقافة وقيم موروثة، وكلّ ما مر به من تجارب سابقة، وتعتبر البيئة (سواء كانت طبيعيّة، عمرانية، اجتماعيّة، ثقافيّة...) أهمّ العناصر المكوّنة أو ذات التأثير المباشر

(١) تصنيف نهج البلاغة- بيضون - ص٦٤٣.

على السلوك الفردي للإنسان، وبذلك يمكن القول: إن هناك تأثير واضح لثقافة الشخص والتقاليد والعادات التي نشأ عليها على سلوكه»[1].

وقد تأكّدت العلاقة بين السلوك والبيئة التي يتواجد فيها الإنسان مما أدى إلى حدوث تغيير في مجال العلوم السلوكيّة؛ وقد نما هذا التغير في اتّجاهين، والتكامل بينهما أوجد الدراسات الخاصة بالعلاقة بين السلوك الإنساني والبيئة، وهذان الاتجاهان هما علم النفس الأيكولوجي وعلم النفس البيئي، ويرجع الفضل لعلم النفس الأيكولوجى في تطوير العديد من النظريات التي تناولت العلاقة بين السلوك والبيئة.

يهتمّ علم النفس الأيكولوجى بشكل أساسي بدراسة العلاقة بين السلوك الإنساني وبين مكونات البيئة التي يعيش فيها الفرد. أمّا مجال الدراسة فيه فهو سياق السلوك أو الإطار الذي يضم المعاملات كافة.

تتمّ الدراسة في البيئات الفعليّة التي يتواجد فيها الأفراد ويتمّ ملاحظة السلوك التلقائي لهم لمدة زمنية طويلة ومنها يتم فهم السلوكيات كاستجابات لتفاعل الأفراد مع تلك

(١) دراسات في علم الاجتماع الثقافي - عبد الحميد محمد سعد

البيئـات[1].

إنّ الحالـة النفسـية التـي يعيشـها الفـرد في بيئتـه تتحكـم في مسـاره وتوجهاتـه في جميـع مراحلـه العمريـة شـاء ذلـك أم أبـى، فعـلى سـبيل المثـال: «الإنسـان بفطرتـه يحـبّ الحريـة، ولكـن عوامـل الاسـتغلال والاسـتعباد وأغـلال النفـس تتجمـع عـلى قلبـه فتحجـب حـبّ الحريّـة فيـه. وقـد يتحـول الإنسـان الـذي يحـبّ الحريـة إلى إنسـان يحـبّ العبوديـة.

لقـد أنقـذ (ابراهـام لنكولـن) العبيـد في الولايـات المتحـدة الأمريكيّـة أبّـان الحـرب المعروفـة بـين الشـمال والجنـوب، وألغـى قانـون الـرق مـن الدسـتور، وأخـرج العبيـد الذيـن كانـوا يعملـون عنـد اسـيادهم البيـض في مصانعهـم وأراضيهـم وتجارتهـم، إلى الحيـاة الحـرة المسـتقلة، وانتهـت بذلـك سـلطة السـادة عـلى العبيد.

ولكـن الكثـير مـن هـؤلاء كانـوا قـد تعـودوا عـلى الـذل والعبوديّـة، فذهـب الكثـيرون منهـم إلى أسـيادهم ليبقـوا تحـت سـلطتهم رغـم الـذل الـذي كانـوا يلاقونـه»[2]. لهـذا فالبيئـة التـي عـاش فيهـا الإنسـان والتـي يعيـش فيهـا لهـا بالـغ الأثـر عـلى نفسـه وتوجهـه، ومـن هنـا يجـب علينـا أن نفكّـر مليـاً بـل يجـب علينـا أن

(١) Wicker,A.W - An introduction to ecological psychology

(٢) التاريخ الإسلامي – المرجع السيد محمد تقي المدرسي– ص: ٤٣

نفكر آلاف المرات ما الذي يجب أن نورّثه لأبنائنا؟.

لأن الابن سِرُّ أبيه، وحامل خصائصه، وهو في حياة الأب قرّة عين، وهو بعد الموت امتداد لوجوده، ومظهر لخلوده، وهو الذي يرث منه الملامح، والصفات، والخصائص، والميزات، على الأب أن يورِّث ابنه الحُسن لا القبح، عليه أن يورّثه الحُب لا البُغض، عليه أن يورّثه المَودة لا الكُره، فهو بضعة من قلبه، وفلذّة من كبده، وعليه أن يسعى جاهداً ليورّثه عزّاً، يورّثه علماً نافعاً ويقيناً ثابتاً.

الآفات الاجتماعية

من الأمراض التي يتعرّض لها المجتمع هي الآفات الاجتماعيّة، و التي تصيب شريحة كبيرة نتيجة للعقد النفسيّة التي تستحوذ عليهم، فبعض الأمراض النفسيّة التي تصيب الناس تجعلهم يقومون بأمور مخالفة للطبيعة البشريّة كالسرقة مثلاً، فهم يشعرون بنقص في ذواتهم مما يجعل من هذا المجتمع مجتمعاً ضعيفاً يمكن السيطرة عليه بسهولة، وهذا بلا شك لا يبرر عمل السرقة -مثلاً- بل لابد للمتصدين للعمل الإصلاحي النظر إلى جذور المشاكل للعمل على علاجها بشكل صحيح.

لقد كان المستعمر عند رغبته باحتلال منطقة ما يعمد إلى

تغير الملامح الأصلية في المجتمع، فحينما يقتل في المجتمع روح التحررأو روح الكرامة فإنّه يسهل عليه بلا شك السيطرة على هذا المجتمع، بعض المستعمرين لجأ إلى تغيير اللغة وبعضهم لجأ إلى تغيير طبائع وتقاليد تلك الدول التي قاموا باستعمارها، وبعضهم قام بتغير ديانة سكان تلك المنطقة حتى أنّهم فقدوا اهتمامهم بدستورهم الديني.

لو قمنا بدراسة للكثير من الدول الإسلامية التي تمّ استعمارها لرأينا أن المستعمر في كثير من الأماكن نجح في إبعاد الناس عن قيمهم الدينيّة وتحت عناوين برّاقة مثل مواكبة التطور أو الحداثة أو ماشابه ذلك، فابتعد الناس عن القرآن الكريم، وتقلّصت أهميته ومحوريته لديهم.

إذن الشعور بالنقص لدى مجتمع ما أو شعب ما يجعله يتخلى سريعاً عن مكتسباته الحقيقيّة، حتّى أنّه يقوم بتغيير ملامحه الطبيعيّة وملابسه وتغيير سلوكه وتغيير أخلاقه، وحتّى لهجته المحلية، من أجل ذلك عمد بعض من قاوموا الاحتلال إلى الدعوة للمحافظة على التقاليد والأعراف والمحافظة على الثقافات والتمسك بالهوية الأصلية للمجتمع.

أوهام وأمراض نفسية

«قد لا يكون خافياً أنّ الإنسان عرضة للإصابة بنوعين

من الأمراض؛ النوع الأول، هو الأمراض المادية التي تصيب الجسد، حيث جعل الله سبحانه وتعالى الإحساس بها دليلًا عليها، حتّى أضحى هذا الإحساس نعمة إلهية تساعد المريض على الإسراع في المعالجة. أما النوع الثاني، وهو الأخطر والأفتك، فهو الأمراض النفسية والمعنوية. ولعلّ هذا النوع يعدّ من أكبر المصائب التي تلم بالإنسان، إذ إنّ للشيطان اليد الطولى في وجودها، وهي مثل التكبّر والغرور والحسد والبخل والحرص، لأنها تحجب المرء عن الإحساس والشعور بسائر الأمراض النفسيّة الأخرى. وإنّ ما يجعل الإنسان يحفظ جوهره هو ثباته واستقامته في حياته وحذره الدائم من وساوس الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء، وتعزيزه لإرادته وتحدّيه للفتن والبلاء وملمّات الدهر»[1].

قيل إنّ رجلاً كان يتوهم بأنّه حبة قمح، وكلّما صادف دجاجة في طريقه خاف منها وأسرع هارباً كي لا تأكله، أقنعوا هذا الرجل باللّجوء إلى طبيب نفسي علّه يجد لديه العلاج المناسب المريح لحالته، وبعد عدة جلسات عند الطبيب النفسي أقنعه ذلك الطبيب بأنّه إنسان وليس بحبة قمح، والدجاجة التي يراها في طريقه لا تشكل أدنى خطر عليه، اقتنع هذا الرجل بكلام الطبيب، لم تمض أيام إلّا وقد عاد

(١) الابتلاء مدرسة الاستقامة- المرجع السيد محمد تقي المدرسي- ص: ٩٠

إليه مرة أخرى فسأله الطبيب عن سبب عودته بعد معالجته من مرضه واقتناعه بأنّه إنسان وليس بحبة قمح وبذلك زالت المشكلة والوهم الذي سيطر عليه، فأجابه المريض: نعم لقد اقتنعت بأنني إنسان ولست بحبة قمح والدجاجة لا يمكن لها أن تأكلني، ولكن حضرة الطبيب من يضمن لي بأنّ الدجاجة مقتنعة بهذا الأمر؟

صحيح أن هذه قصة قد لا تكون حقيقيّة، ولكنها تكشف عن حقيقة مهمّة وهي أن هنالك عقداً و أوهاماً تسيطر على لبّ الإنسان وتمنع الآخرين من التواصل معه، أوهام تبنى عليها قناعات ومجتمعات تعيش حالة من العداوة والبغضاء ويتوهم كلّ واحد من هذا المجتمع أن الطرف الآخر عدو له ويضمر له الشر، دون أن يكون لذلك أساس من الصحة فيتقاطع الناس وتنتشر الأمراض و العصبيات، والمشكلة أنّه حتّى لو مضت سنوات وسنوات فإنّ الأبناء سيتوارثون هذه الأوهام والعُقد النفسيّة، ولن يكون هناك مساحة يمكن من خلالها الرجوع إلى سابق العهد من الصفاء وحسن الظن والتعامل الحسن بين الناس، الجميع يدعوا إلى الوحدة والألفة بين أفراد هذا المجتمع الواحد ويعترفون بأن هذه القضية من القضايا الملحة والمهمّة جداً، ولكنهم عند التطبيق يصطنعون الحواجز المبنيّة على أوهام وأمراض نفسية.

وهنا لا بد أن نلفت الانتباه إلى أنّ تجذير الأوهام والعقد النفسيّة في قلوب أبناء هذا المجتمع جيلاً بعد جيل كفيل بإماتة القلوب، وإنّ إحياء هذه النفوس من جديد سيتطلب وقتاً وجهداً كبيراً، للوصول إلى النتيجة المرجوّة وإصلاح أمر هذه البيئة وهذا المجتمع.

إن هذه الأمراض والعقد النفسية تُشكِّل نوعًا من الشقاء البشري؛ فالمريض لا تتوافر عنده متعة الحياة وإن توافرت له سائر أسباب الرفاه. والإيمان يدفع شقاء المرض، يقول عزّوجلّ واصفاً الدور الذي يقوم به النبي في المجتمع: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1]، فالإيمان يقضي على الأمراض النفسية والعقد ويحرر الإنسان من الاغلال.

الإعراض عن اللّه عزّوجلّ

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[2]، لمن هذا الخطاب الإلهي والوعيد الشديد؟

(١) الأعراف: الآية ١٥٧

(٢) طه: الآية ١٢٤

إنه لجميع الناس، والعاقل من عرض نفسه على جميع آيات القرآن، فلا يقول: إنني مؤمن وهذه الآيات لا تشملني، فالجميع مشمول بهذا التنبيه الإلهي والوعيد السماوي، وخصوصاً المؤمنين فقد فهموا نداء الله تعالى وإشارته في الآية الكريمة وتهديده.

يقول الله عزّوجلّ: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1]، يجب علينا أن نحذر ونخاف من عذاب الله سبحانه، ونهابه ونحذر عقابه، ونتجنب الوقوع في الفتن، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**كن في الفتنة كابن اللبون لا ضرع فيحلب و لا ظهر فيركب**»[2]، ونحن نعيش في عصر الفتن والأهواء، فلقد سُئل الإمام أبو جعفر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال عليه السلام: «**الفتنة الكفر**»[3].

إنّ الجميع يسعى للخروج من الأزمات التي تحيط بنا وعواصف الرغبات والأهواء التي قيّدتنا وصبغت قلوبنا، نقرأ في دعاء كميل: «**اللهم عظم بلائي وأفرط بي سوء حالي و قصرت بي أعمالي وقعدت بي أغلالي وحبسني عن نفعي بعد**

(١) النور الآية ٦٣

(٢) بحار الأنوار ج٦٦ ص:٤٠٨

(٣) تفسير فرات: ١٠٥

أملي وخدعتني الدنيا بغرورها ونفسي بجنايتها»، إذن لا بد لنا من أن نكسر تلك القيود التي قيّدنا بها أنفسنا ونتحرر من تلك الأهواء والرغبات لنرتقي في عالم الكمال الإلهي، ولا يجب علينا أن نكون رهائن عُقَدِنا وأمراضنا النفسيّة وآفاتنا البيئيّة.

نحن نرى من يستحل الحرام ويحرم الحلال، هو أمر خطير في مجتمعنا لأن ذلك سيولّد عُقَداً في المجتمع مبنيّة على أكل الكبير للصغير، وأكل القوي للضعيف، ولن يتوقف عند أكل المال الحرام، وسينتقل هذا المرض إلى جميع المنظومات الكونية ففي السياسة سنعمد لتطبيق هذا الأمر وفي الاقتصاد وفي الاجتماع وفي الأخلاق، فبدلاً من اتخاذ التنافس الإيجابي بين شرائح المجتمع سنتّخذ من الطبقيّة والفوقيّة حاكمية بيننا، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يصلح شأن الإنسان، والشيطان يريد أن يضله ويبعده عن جادة الصواب، ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾[1].

إنّ من أسباب إعراض الناس عن الله عزّوجلّ هو تصديقهم للأماني التي يلقيها لهم الشيطان فيعيشون في عالم كاذب من الأوهام والأماني، وهذا الشيطان قد يتمثل في

(١) البقرة: الآية ٢٦٨

الحاكم الظالم أو في أعوانه أو في الشركات التي تمنّي الناس وتغريهم، أو غير هم من الوسائل الكثيرة التي يستفيد منها الشيطان ليبعد الناس عن الله عزّوجلّ.

إنّ الإنسان لا يحصِّل من الأماني سوى الحسرة والعناء، ومع ذلك الشيطان عليه لعنة الله يعظم هذا الأمر في قلب الإنسان، وينمّي العقد في داخله، وتبحر بعض النفوس في مياه آسنة تتشفّى ممن أنعم الله عليهم ورزقهم من خيره بالحقد والحسد فيثمر ثمراً خبيثاً غيبةً ونميمةً واستهزاءً وغيرها.

ولا يخلو مجتمع من تلك النفوس المريضة، فقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: « **مَن نَظَر إلى ما في أيدي الناس طال حُزنُه، ودام أسَفُه**»[1]. ورُوي أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «**الرغبةُ في الدنيا تُورث الغمَّ والحزن، والزهدُ في الدنيا راحة القلب والبدن**»[2].

على الإنسان أن يراقب نفسه هل يتمنى لغيره مايتمناه لنفسه؟. هل حقاً ننظر إلى عطاءات الله سبحانه للآخرين على أنّها عطاءات ربانيّة؟ عندما نرى إنساناً اجتهد وبلغ مرتبة ما هل نُقرّ له بذلك أم ندّعي أن السبب كان دعماً بشرياً أو واسطة دنيويّة، أو عندما يكدّ الإنسان ليعيش في هذه الدنيا عيشة هنيّة

(١) إعلام الدين: ٢٩٤

(٢) تحف العقول: ٣٥٨

هل سنعترف له بذلك بأنه تعب وجاهد حتى وصل إلى ماوصل إليه؟ أم أننا سنشكك في وضعه وفي ماله؟ أو عندما نرى من يعمل عملاً حسناً يحبه الله ورسوله هل سنعترف له بذلك؟. أم نقول بأنه مرائي ولا خير في عمله ؟

وقد أمرنا الله عزّوجلّ أن لا نبخس الناس أشياءهم فقال عزّوجلّ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، والبخس في لسان العرب هو النقص بالتعييب والتزهيد، أو المخادعة عن القيمة، أو الاحتيال في التزييد في الكيل أو النقصان منه، وتشمل الأشياء الماديّة والمعنويّة وليست مقصورة على البيع والشراء فقط، بل تدخل فيها الأعمال والتصرفات، وكذلك تقييم مجهودات الناس، ومعرفة منازلهم، وإنزالهم إياها.

والبخس يشمل النقص والعيب في كلّ شيء، فهو يشمل بخس الحق، وبخس المال، وبخس العلم، وبخس الفضل، ويشمل أيضاً المساومة والغش والحيَل التي تُنتقص بها الحقوق، ومنه بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل.

وصور بخس الحقوق في زماننا كثيرة، وهي من أسباب

(١) الأعراف: ٨٥

المحـق، وزوال البركـة. حتّـى في مجـال الـكلام عندمـا نسـتمع إلى خطـاب جيـد علينـا أن نعـترف بذلـك ونشـير إلى أهميّـة ماسـمعناه سـواء كنّـا نتفـق معـه أو نختلـف، سـواء كان ذلـك الخطـاب سـياسي أو في القضايـا الاجتماعيـة أو غيرهـا.

الوساوس الشيطانية

لا يخلـو الإنسـان مـن الوسـاوس الشـيطانيّة ومـن الأفـكار السـيّئة التـي قـد تجـول في خاطـره في أيّ زمـان وفي أيّ مـكان، ودائـماً ماتكـون هـذه الأفـكار السـيّئة سـبباً للمشـاكل والنـدم في نهايـة المطـاف، مـن هنـا علينـا أن نحصّـن أنفسـنا ونقيهـا نـاراً تحـرق الـروح والجسـد ونبنـي جسـراً بيننـا وبـين الله سـبحانه وتعـالى، لندفـع عـن أرواحنـا وسـاوس الشـيطان، والتـي تجرّنـا رويـداً رويـداً نحـو التهلكـة، ويبـدأ كلّ ذلـك مـن خـلال اختيـار القريـن فعـن أمـير المؤمنـين عليه السلام قـال: «**عـدوٌّ عاقـل خـير مـن صديـق أحمـق**»[1]، إنّ عـلى الإنسـان أن يختـار أقرانـه ومـن يحتـك بهـم ويتحـدث إليهـم، فللصديـق الأثـر البالـغ في حيـاة صديقـه وتكيّفـه فكريّـاً وأخلاقيّـاً لمـا هـو معـروف مـن أن الإنسـان مجبـول عـلى سرعـة الانفعـال بالقرنـاء والأصدقـاء، فالقريـن الصالـح رائـد خـير وداعيـة يهـدي إلى الرشـد والصـلاح، كـما أن

(١) بحار الأنوار - ج٧٥ - ص: ١١

الفاسد رائد شر وداعية ضلال يقود إلى الغي والفساد، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[1].

المهمّ في الأمر هو كيفية التعامل مع من حولك، فالصديق الأحمق قد يضرك من حيث أراد نفعك، أمّا العدو العاقل يمكن التفاهم والتعامل معه على أساس العقل الذي يجنّب الطرفين الكثير من الكوارث، وخصوصاً عندما يقوم الشيطان باختراق القلوب والصدور ليعمل على بثّ الفرقة والخلاف وزرع الحسد في النفوس، فتتولد البغضاء والشحناء، فكم من كلمة صغيرة أشعلت حرباً امتدّت لسنوات وسنوات، وهذه الكلمة نعبّر عنها عندما نسمعها بأنّها كلمة شيطانية أو تعبير شيطاني أو «إن الشيطان نطق على لسانك» لشدة قبح ماقاله، علينا أن نراقب ما نقول دائما فما نتلفّظ به يترسخ في أذهاننا وأذهان غيرنا، ما نقوله يحدد مصيرنا ومصير غيرنا، يقول الله عزّوجلّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ

(١) الفرقان: ٢٧ - ٢٩

خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[1]، إذن لابد أن يكون الكلام على بصيرة وإدراك ووعي.

ومن الوساوس الشيطانيّة تصوير كلّ مانقوله بأنّه الحق ولا رأي يعلو فوق رأينا، فنستبّد بآرائنا ونرفض كلام الآخرين لأننا نعتبره باطلاً، إنّ المطلوب هو العكس تماماً إذ علينا أن نكون من ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾[2] عندما نرى الحق علينا أن نعترف به ونتّبعه، ونقر بأخطائنا إن أخطأنا، فالاعتراف بالذنب فضيلة.

الذنوب والأمراض النفسية

إذا لم يعالج الإنسان نفسه من الأمراض النفسية فإنّها ستشكل حجاباً يمنعه من الوصول إلى الله عزّوجلّ، ذلك أنّ الشيطان يستغل هذه الأمراض ليبعد بها الإنسان عن مراتب القرب و العبادة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا وجع أوجع للقلوب من الذنب**» [3]، فالذنوب تتراكم على كاهل الإنسان وتجعله بعيداً عن ساحة الرأفة الإلهيّة، وهنا يسأل سائل ما الذي يُبعد

(١) إبراهيم: الآية ٢٤- ٢٦

(٢) الزمر: الآية ١٨

(٣) أصول الكافي - ج ٢ - ص: ٢٧٥

المؤمن عن الصراط المستقيم؟ وعن النهج القويم؟ وكيف تكون هذه الأمراض سبباً لحرمانه من العبادة ومنزلة القرب الإلهي؟

إنّ الأمراض والعقد النفسيّة تؤدي إلى تثاقل الإنسان عن العبادة، ذلك أن من طبع الإنسان إن اهتم بشيء أقبل عليه طوعاً ورغبةً، والتثاقل عن العبادة وخصوصاً الصلاة دليلٌ على قلّة اهتمام هذا العبد بصلاته فتتسع الهوة بينه وبينها، انشغال الإنسان بالانشغالات الجانبيّة التي تفرضها عليه العقد النفسيّة تبعده عن الإقبال على القرآن، أو مثلاً يعزف عن العبادات كالحج و الخمس وغيرها.

إنّ ما يريده الشيطان هو صرف الإنسان عن كلّ ما يقربه إلى الله سبحانه وتعالى ويوسوس له كلّ ما من شأنه منعه من فعل الخير، ولذا كلما كانت نفسك قويّة و مؤمنة بالله تعالى نظيفة من العقد والأمراض كلّما كنت أكثر قوة على وساوس الشيطان و أبعدت نفسك عن أيّ شيء يغضب الله، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1]، و لا يريد أن يحصل البشر على رضا الله سبحانه وتعالى، لدرجة أن الإنسان إذا أراد أن يعطي في سبيل الله وقف على يده سبعون

(١) فاطر الآية ٦

شيطاناً يحاولون منعه كما يقول رسول الله ﷺ: «**أما علمت يا علي أن صدقة المؤمن لا تخرج من يده حتى يفك عنها من لحيى سبعين شيطانا كلهم يأمره بأن لا تفعل، وما يقع في يد السائل حتى يقع في يد الرب جل جلاله**»[1].

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ الرجل ليكذب الكذبة فيُحرم بها صلاة الليل، فإذا حُرم صلاة الليل حُرم بها الرزق**» [2]. إذا شعر الإنسان بتثاقل في قيامه للصلاة فعليه أن يراجع نفسه ليعرف مكامن الخلل فيها، فلنكن حريصين على أداء صلواتنا بالروحيّة المطلوبة، لقد جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين إني قد حُرمت الصلاة بالليل، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنت رجل قد قيدتك ذنوبك**» [3]، يشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى وجود حجاب منع هذا الرجل من الارتباط بالله سبحانه وتعالى، يقول عليه السلام أيضاً في دعاء كميل «**و فكني من شد وثاقي**» فنحن ندعوالله أن يخلّصنا من الذنوب التي هي كالوثاق تحيط بالإنسان وتقتله، ونناشد الله عزّ وجلّ ليضع عنا تلك الأغلال التي كبّلنا بها أنفسنا.

---

(١) بحار الأنوار - ج ٩٣ - ص ١٢٤

(٢) علل الشرايع - ج ٢ -ص ٥١

(٣) الكافي ج ٣/ ٤٥٠

هـذه الأغـلال التـي تشـد الإنسـان للمعـاصي والذنـوب، والإسـلام جـاء لرفـع القيـود والأغـلال عـن النـاس التـي هـي نتـاج فعـل الظالمـين، إنّ هـذه الآثـام أثقلـت كاهـل البـشر ومنعتهم مـن التقـدم والتطـوّر، فهـذه الذنـوب لهـا آثـار مدمّـرة عـلى الفـرد والمجتمـع والحيـاة بأكملهـا، وذلـك أنّ قـوام الدنيـا وصلاحهـا إنـما هـو في الطاعـة والاسـتقامة والتقيُّـد بـشرع الله عزّوجـلّ، وكلّ انحـراف عـن أمـره، وكلّ اتّبـاع لنزغـات الشـيطان وكلّ تفلُّـت مـن دينـه إنّـما هـو ركـض وراء الـسراب، وضرب في تيـه الشـقاء، ولا بـد أن يلمـس الإنسـان آثارهـا النكـرة في نفسـه وحياتـه ثـم في آخرتـه.

عـن الإمـام عـلي عليه السلام: « **مـا زالـت نعمـةٌ ولا نضـارةُ عيـشٍ إلّا بذنـوب اجترحـوا، إنّ الله ليـس بظـلامٍ للعبيـد، ولـو أنّهـم اسـتقبلوا ذلـك بالدّعـاء والإنابـة لـم تـزل**»[1] فالمعـاصي تسـلب الإنسـان النقـاء والصفـاء والنـور الداخـلي الـذي يقذفـه الله في قلـب مـن يشـاء، نحـن نطلـب مـن الله سـبحانه وتعـالى الهيبـة والوقـار في دعـاء البهـاء: «**اللهـم إني أسـألك مـن بهائك بأبهـاه وكل بهائـك بهـي اللهـم إني أسـألك ببهائـك كلـه**»، وهـذا البهـاء و النور لا يمكـن أن يكـون مـع وجـود حجـب الذنـوب و المعـاصي.

(١) وسائل الشيعة - ج٥ - ص١٧٨

نور العبادة

عن الإمام زين العابدين عليه السلام لما سُئل: ما بال المتهجّدين بالليل من أحسن الناس وجهاً؟ فقال عليه السلام: «**لأنهم خلوا بالله فكساهم الله من نوره**»[1]، إنّ النور المتحصّل من هذه الصلاة ليس فقط مختص بنور الوجه وإنّما هو نور يضيء القلب والروح، هذا النور يوجّه الإنسان نحو الصلاح والخير ويبعده عن الخطأ والشر والمعصية، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **صلاة الليل مرضاة الرب، وحبّ الملائكة، وسنّة الأنبياء، ونور المعرفة، وأصل الإيمان، وراحة الأبدان، وكراهية الشيطان، وسلاح على الأعداء، وإجابة الدعاء، وقبول الأعمال، وبركة في الرزق، وشفيع بين صاحبها وبين ملك الموت، وسراج في قبره، وفراش تحت جنبه، وجواب مع منكر ونكير، ومؤنس وزائر في قبره إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كانت الصلاة ظلاً فوقه، وتاجاً على رأسه، ولباساً على بدنه، ونوراً يسعى بين يديه، وستراً بينه وبين النار، وحجّة للمؤمن بين يدي الله، وثقلاً في الميزان، وجوازاً على الصراط، ومفتاحاً للجنة**»[2].

---

(١) علل الشرائع: ٣٦٦

(٢) مستدرك سفينة البحار، للشيخ علي النمازي: ٦ / ٣٥١

إنّ للعبادة نوراً يقرّب الإنسان من الرّب ويبعده عن الشيطان، وكلّما اقترب الإنسان من خالقه كلّما ابتعد عن الإعراض عن الذكر الذي ذكره ربّنا عزّوجلّ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾[1].

إذا أراد المؤمن أن يصل إلى الله سبحانه وتعالى وأن يكون دائم الذكر له، يجب عليه التخلص من الآفات النفسيّة التي نهت عنها شريعة الله سبحانه وتعالى، كالحسد والعجب والغرور والغفلة والقسوة والرياء، والتخلّص من آفة «الأنا» والتي لها مكانة في قلوبنا ونفوسنا بنسبة معيّنة، إننا بحاجة أن نعود إلى القيم الربانيّة، ونبتعد عن كلّ مايورث العصبيّة والأنانيّة والعقد النفسيّة، لأن هذه العقد تضيّق نظرة الإنسان وتجعله يفكر في نفسه فقط، يقول نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**»[2]، علينا أن نشعر بالآخرين وإن كانوا في آخر نقطة من العالم، لذلك نرى أهل البيت عليهم السلام عندما يفكّرون لا يفكرون بأنفسهم بل يبدأون بغيرهم، عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: «**كانت فاطمة عليها السلام إذا دعت تدعو للمؤمنين والمؤمنات ولا تدعو لنفسها، فقيل لها: يابنت رسول الله إنّكِ تدعين للناس ولا**

(١) طه: الآية ١٢٤

(٢) بحار الأنوار - ج٧٢ -ص٣٨

تدعين لنفسك، فقالت: الجار ثم الدار»[1].

يجب علينا أن نخرج من دائرة الفِئويّة والقبليّة والحزبيّة فهذه من العقد النفسيّة والآفات الاجتماعية التي لا بدّ من التخلص منها ومحاربتها، فلا عصبيّة في الإسلام إلا للحق لا لقومك و لا لنفسك، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **من كان في قلبه حبّة من خردل من عصبيّة، بعثه الله تعالى يوم القيامة مع أعراب الجاهليّة**»[2]، وقال الإمام الباقر عليه السلام: « **جلس جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينتسبون ويفتخرون، وفيهم سلمان، فقال عمر: ما نسبك أنت يا سلمان وما أصلك ؟**

فقال: أنا سلمان بن عبد الله، كنت ضالاً فهداني الله بمحمّد، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمّد، وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمّدٍ، فهذا حسبي ونسبي يا عمر.

ثمّ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذكر له سلمان ما قال عمر وما أجابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « يا معشر قريش إن حَسب المرء دينه، ومروءته خُلقه، وأصله عقله، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ

(١) وسائل الشيعة ج ٧- ص١١٣

(٢) أصول الكافي ج٢ -ص٣٠٨

أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1]»، ثمّ أقبل على سلمان فقال له: «إنّه ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلّا بتقوى الله عزّ وجلّ، فمَن كنتَ أتقى منه فأنت أفضل منه»[2].

العباس عليه السلام مدرسة التضحية

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كان عمنا العباس بن علي نافذ البصيرة، صلب الإيمان، جاهد مع أبي عبد الله عليه السلام، وأبلى بلاءً حسناً، ومضى شهيداً**»[3]، العباس بن علي بن أبي طالب عليهما السلام باب من أبواب الله سبحانه لقضاء الحوائج ولرفع الكروب، كما أنّه أنموذج رفيع يُقتدى به، والسؤال هو ما الذي أوصل العباس عليه السلام إلى هذه المرتبة الرفعية والمنزلة العالية؟

إنّ أكثر مايجذب المؤمنين نحو العباس عليه السلام هي مواقفه وإيثاره وعطاؤه وتضحيته بين يدي الحسين عليه السلام، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «**رحم الله العباس، فلقد آثر، وأبلى، وفدى أخاه بنفسه، حتّى قُطعت يداه**»[4]،

(١) الحجرات: ١٣

(٢) الأمالي للصدوق ١٤٧

(٣) مقتل الحسين لأبي مخنف: ١٧٦

(٤) الخصال: ح١٠١، من باب الاثنين: ص٦٧

فالعباس عليه السلام لم يفكر بنفسه وإنما فكر بأخيه الحسين عليه السلام وآثره على نفسه، هذه المواقف التي سطّرها أبو الفضل عليه السلام في كربلاء هي دروس وعبر لنا جميعاً كيف يجب علينا أن نفكر؟ وما هي نظرتنا وكيفيّة تعاملنا مع الآخرين؟ هل ياترى إن أقبلت إلينا الدنيا سندبر عنها ونطلّقها ثلاثاً كما طلّقها أمير المؤمنين عليه السلام وابنه العباس بن علي عليهما السلام؟

إنّ ما وصل إليه العباس عليه السلام كان نتيجةً لتربيته التي تلقّاها والبيئة المحيطة التي عاش فيها، إضافةً إلى تحرّره من الأمراض النفسيّة، وعقدة «الأنا» التي تجعل الإنسان يفكر في مصالحه الشخصيّة ويقدّمها على كلّ شيء، بينما نلاحظ أن مواقف العباس عليه السلام في كربلاء تبيّن وبجلاء كيف أنّه تجاوز نفسه وذاب في قضيّة الحق المتمثلة بالإمام الحسين عليه السلام وقدّم لها كلّ مايملك.

تتحدث كتب التأريخ بأن عبد الله بن أبي المحل بن حزام العامري ذهبَ إلى ابن زياد وطلب منه تزويده بكتاب يعطي بموجبه ابن زياد الأمان للعباس وإخوته إن هم تركوا الحسين عليه السلام، وقال له: أصلح الله الأمير إنّ علي بن أبي طالب قد كان عندنا بالكوفة فخطب إلينا فزوجناه بنت عم لنا يقال لها: أم البنين بنت حزام فولدت له: عبد الله وعثمان وجعفراً والعباس فهم بنو أختنا وهم مع أخيهم الحسين بن

علي فإن أذنت لنا أن نكتب إليهم كتاباً بأمان منك فعلت متفضلاً، فأجابه عبيد الله بن زياد إلى ذلك.

فكتب عبد الله بن أبي المحل ودفع الكتاب إلى غلام له يقال له «عرفان»، فلمّا ورد الكتاب إلى أخوة الحسين ونظروا فيه، قالوا للغلام: اقرأ على خالنا السلام وقل له: لا حاجة لنا في أمانك، فإن أمان الله خير لنا من أمان ابن مرجانة، فرجع الغلام إلى الكوفة فأخبره بذلك فعلم عبد الله بن أبي المحل أن القوم مقتولون.

وأقبل شمر بن ذي الجوشن على عسكر الحسين ونادى بأعلى صوته: أين بنو أختي؟ أين عبد الله وعثمان وجعفر والعباس بنو علي بن أبي طالب؟ فسكتوا.

فقال الحسين عليه السلام: «**أجيبوه ولو كان فاسقاً، فإنّه بعض أخوالكم**»، فنادوه: ما شأنك وما تريد؟

فقال: يا بني أختي أنتم آمنون فلا تقتلوا أنفسكم مع أخيكم الحسين والزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد بن معاوية.

فناداه العباس بن علي: تبت يداك يا شمر، لعنك الله ولعن ما جئت به من أمانك هذا، يا عدوّ الله أتأمرنا أن نترك أخانا الحسين ابن فاطمة وندخل في طاعة اللّعناء وأولاد

اللّعنـاء، فرجـع شـمر إلى عسـكره مغيظـاً[1].

لقـد ضرب العبـاس بهـذا الموقـف الصلـب الثابـت مثـلاً أعـلى في الإبـاء والتضحيـة والسـير عـلى طريـق الحـق والصـواب ذلـك الطريـق الـذي خُـطَّ لـه منـذ نعومـة أظفـاره.

حـريٌ بنـا اليـوم أن نـدرس مواقـف العبـاس في كربـلاء ونتعلّـم منـه كـي نحـرر أنفسـنا مـن العقـد والأمـراض النفسـيّة وننطلـق مـع العبـاس إلى فضـاء الإيـمان الرحـب، محلّقـين بجناحـي التضحيـة والإخـلاص.

(١) مقتل الخوارزمي ١: ٢٤٦

كربلاء

منطلق التغيير

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]

التغيير سنة كونية

لا يمكن لأحد أن يقف أمام التغيير، فالتغيير سمة مميزة من سمات البشر، وكلّما تطور الإنسان وتغير نحو الأفضل كان ذلك نتيجة لاستفادته من عامل الزمان والمكان لتحقيق طموحاته وأهدافه، فالتغيير عمليّة ديناميكيّة مستمرة لا تتوقف، علمنا أم لم نعلم رضينا أم لم نرضى.

ولولا التحول والتغيُّر لما وصل الناس لما وصلوا إليه، فضرورة التغيير رؤية قرآنيّة، رؤية ربانيّة، لأنّ المستفيد من حالة التغيير هو نفس الإنسان، ولولا التبدلات الحاصلة في عالم البشر لكانوا لا يزالون يستخدمون الطرق البدائيّة في معيشتهم وتنقلاتهم، وكانو لا يزالون يستخدمون الدواب

(١) الرعد: الآية ١١

والبغـال والجِـمال في تحركاتهـم، وبذلـك تتعطـل الكثـير مـن مصالحهـم، إنّ الاسـتفادة مـن عامـل الزمـان والمـكان جعـل العقـل البـشري يتغـير بتغـيُّر الزمـان والمـكان ويواكـب التحـولات والمتغـيّرات، ونتيجـة لتطـور العلـم والمعرفـة اسـتبدلوا الحيوانـات بوسـائل النقـل السريعـة، التـي تمكّنهـم مـن التواصـل مـع بعضهـم البعـض خـلال سـاعات بـل خـلال دقائـق وربـما خـلال ثـواني.

الطائـرات التـي نشـهدها تجـوب العـالم شرقـاً وغربـاً وتوصل المسـافرين لأماكنهـم، الفضائيـات التـي يتواصـل النـاس مـن خلالهـا، الشـبكة العنكبوتيـة وعـالم الانترنـت تلـك التـي يسـتطيع الفـرد مـن خلالهـا أن يتواصـل مـع مـن يشـاء بسرعـة قياسـية وفي زمـن قيـاسي.

ومـع كلّ ماتوصّـل إليـه العلـم في عصرنـا الحـاضر فـإنّ الله سـبحانه وتعـالى جعـل حافـزاً دائـماً للبـشر لطلـب العلـم بقولـه عـزّ مـن قائـل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1]، أي أنّ البشريّـة مهـما توصّلـت إليـه مـن علـوم وتكنلوجيـا وصناعـة متطـورة في شـتّى الميادیـن والمجـالات، سـنجدها فقـيرة جـداً أمـام العلـم الحقيقـي الـذي يمكـن أن يصـل إليـه الإنسـان، لذلـك نحـن ننتظر الكـمال والعلـوم والمعـارف في عـصر الإمـام المهـدي عجـل الله

(١) الإسراء: الآية ٨٥

تعالى فرجه الشريف، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**أنّ قائمنا إذا قام مدّ الله لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم، حتى لا يكون بينهم وبين القائم بريد يكلمهم فيسمعون وينظرون إليه، وهو في مكانه**»[1]، وعنه عليه السلام أيضاً قال: «**إنّ المؤمن في زمان القائم وهو بالمشرق ليرى أخاه الذي في المغرب، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق**»[2]، فالإمام المهدي عليه السلام يطوّر التكنلوجيا ويضعها في المسار الموضوعي الصحيح بعيداً عن الانحراف وذلك لتحقيق الأهداف الإنسانيّة الكبرى والمتكاملة.

فالتغيير في صالح الإنسان والتغيير الذي نعنيه هنا هو التغيير الإيجابي بطبيعة الحال وهو سلسلة من الأعمال التي تقودنا إلى مستوى أفضل في سائر شؤون حياتنا، إنّ الإنسان بفطرته يملك الطموح في داخله، هذا الطموح يقوده لأن يتغير إلى الأفضل وإلى الأحسن على الصعيد الاقتصادي، وعلى الصعيد الاجتماعي، وعلى الصعيد العلمي والمعرفي، وعلى الصعيد الأخلاقي، وعلى الصعيد السياسي، وعلى الاصعدة كافةً.

كما أنّ التغيير ليس مطلوباً لذاته بقدر ما هو مطلوب

(١) أصول الكافي - ج٨ - ص: ٢٤٠

(٢) بحار الأنوار - ج٥٢ - ص: ٣٩١

للوصـول إلى الأفضـل والعمـل عـلى الانتقـال مـن حـال سيء إلى حسـن، ومـن حسـن إلى أحسـن، وهكـذا لا تتوقـف عمليـة التغيـير لأنّهـا سـنّة كونيّـة لا يسـتطيع أحـد أن ينكرهـا، ولكـي يتحقـق التغيـير فإننـا بحاجـة إلى قـراءة واعيـة وإرادة قويّـة وهـذا يدفعنـا لقـراءة التاريـخ مـن خـلال متابعـة النـماذج الناجحـة التـي اسـتطاعت أن تعـبّر عـن نفسـها مـن خـلال تغيـيرات حقيقيّـة سـواء عـلى صعيـد الأفـراد أو المجتمعـات.

وتـأتي سـيرة الرسـول الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم هـذا النبـي العظيـم لتمثّـل نموذجـاً راقيـاً في عمليـة التغيـير الاجتماعـي والأخلاقـي والسـياسي الـذي قـام بـه عـلى الرغـم مـن التحديـات الكبـيرة التي واجهـت مسـيرته المباركـة، إلّا أنّـه اسـتطاع أن يـترك تأثـيراً كبـيراً وبصـمات واضحـة عـلى ذلـك المجتمـع الجاهـلي حتـى أنّ أعـداءه لم يسـتطيعوا أن يأخـذوا عليـه مأخـذاً واحـداً فيـما يرتبـط بفضائـل الأخـلاق والصفـات الحميـدة التـي كان يتصـف بهـا صلى الله عليه وآله وسلم، وإننـا اليـوم مدعـوون للتوقـف عنـد هـذه التجربـة الرائـدة عـلى كلّ صعيـد مـن أجـل الوصـول إلى تغيـير حقيقـي في واقعنـا إذا كنـا جادّيـن فعـلاً في السـعي وراء التغيـير الـذي تتنافـس اليـوم حولـه أكـبر المجتمعـات المتقدمـة مـن أجـل أن تحقـق السـبق وتحافـظ عـلى موقعهـا في الريـادة والتقـدم.

إنّ عمليـة التغيـير تتطلـب شـجاعة، ولكنهـا في نفـس

الوقت تتطلب تضحيات كبيرة حيث ينبغي أن يتخلى البعض عن التعصب لشخصه أو بنات أفكاره واعتبار ذلك من المقدّسات التي لا ينبغي المساس بها، وربما تتحول بعض الأعراف والتقاليد في مجتمعاتنا إلى أمور أشبه بـ«دين» والعياذ بالله وهو ما يؤدي إلى حالات الاستبداد والطغيان سواء على الصعيد الرسمي للحكومات والأنظمة أو حتّى على الصعيد الاجتماعي لا فرق، وهو ما يفسر حالة الجمود التي تعاني منها مجتمعاتنا بينما تدفع قيم الدين السامية الناس للسير والسعي في الأرض واقتحام آفاق السماء والبحث عن المعرفة والعلم، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[1]، وبينما كانت فلسفة بعث الأنبياء عليهم السلام وأحد مهمّاتهم العظيمة هي استثارة عقول الناس، وكما عبّر عن ذلك الإمام علي عليه السلام حيث يقول في سياق حديثه عن هدف انبعاث الرسل عليهم السلام: **«ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول»**[2].

(١) الحج : الآية ٤٦

(٢) نهج البلاغة – الخطبة رقم ١

الوعي منطلق التغيير

إنّنا بحاجة إلى أن نتبنّى ثقافة التغيير التي تقوم بصياغة وعي تغييري يعزّز ثقة الناس بأنفسهم وبقدراتهم وإمكانيّاتهم، ولكي نكون قادرين على ذلك تأتي الحاجة إلى تضحيات كبيرة لا بد من تقديمها؛ تبدأ من حقّ الناس واحترام حرّياتهم ورغباتهم ولا تنتهي عند حفظ الكرامات وحقّ الناس في الشراكة السياسيّة والاقتصاديّة والوطنيّة معنىً ومضموناً لا شكلاً وصورة، وهي أمور بحاجة إلى نقاش طويل وبحث مستمر ولكن من سار على الدرب وصل.

وتأتي أهميّة الوعي لأنّ الناس يختلفون بطواعيتهم للتغيير، فيتصوّر البعض واهماً أنّ التغيير يأتي من خلال تغيُّر العالم دفعة واحدة وبكل سهولة ويبدأ من الآخرين ليصل إليه، بينما يقول ربّنا عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، إذن فالقضية تبدأ من داخلك، حينما تعي أهمية التغيير تكون قادراً على الوصول إليه، وطالما أن التغيير عملية متواصلة، فلم لا تجعلها لمصلحتك، عوضاً أن تكون ثقلاً عليك؟. لماذا لا تقوم بتوجيهها بنفسك بدلاً من ترك الأمر للآخرين؟.

(١) الرعد :الآية ١١

لـو أنّ أحدهـم جالـس العلـماء فـلا يعنـي ذلـك أنّـه قـد أصبـح عالمـاً، أو صـار فقيهـاً، إلّا إذا أراد هـو وقـرّر في داخلـه أن يكـون مـن الفقهـاء والعلـماء والحكـماء، فمجـرد الجلـوس لا يصنـع منـك عالمـاً، نعـم مـن التوفيـق مجالسـة العلـماء فقـد قـال المسـيح عليه السلام للحواريـين: «**يـا بنـي إسرائيـل زاحمـوا العلـماء في مجالسـهم ولـو جثـواً عـلى الركـب فـإنّ الله يُحيـي القلـوب الميتـة بنـور الحكمـة كـمَا يُحيـي الأرض الميتـة بوابـل المطـر**»[1]، وعـن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مـن اسـتقبل العلـماء فقـد اسـتقبلني، ومـن زار العلـماء فقـد زارني، ومـن جالـس العلـماء فقـد جالسـني، ومـن جالسـني فكأنـما جالـس ربي**»[2]، ولكـن اسـتحصال هـذه النعـم لا يكـون مـن فـراغ بـل مـن إرادة ورغبـة في التغيـير وفتـح القلـوب لإدخـال أشـعة أنـوار الحكمـة لداخلهـا.

ولـو أنّ شـخصاً انتقـل مـن مجتمـع متخلّـف إلى مجتمـع متقـدم، كمـن انتقـل مـن منطقـة مـا يسـمى بالعـالم الثالـث إلى إحـدى الـدول المتقدمّـة تكنلوجيّـاً، فإنّـه ليـس بالـضروة أن يصبـح هـو متقدمـاً لمجـرد وصوله لتلـك المنطقـة المتقدمـة علميّـاً والمتطورة تكنلوجيّـاً، إنّ ذلـك بحاجـة إلى وجـود حالـة وعـي داخـلي لديـه بأهميّـة التغيـير والانطـلاق نحـو التغيـير، فالوعـي جـزء مهـم في

(١) بحار الأنوار - ج ١ - ص: ١٤٥

(٢) كنز العمال - الحديث ٢٨٨٨٣.

عمليـة التغيـير، ودون هـذا الوعـي فإنّـه قـد يسـتفيد مـن الوسـائل الموجـودة في ذلـك المجتمـع المتحـضّر دون أن يكـون للبيئـة أثـر عليـه، حتّـى وإن عـاش في ذلـك الوسـط قـد يبقـى جاهـلاً أميّـاً لآخـر فـترة مـن عمـره.

التغيير طريق الخير

يُحكـى أنّ ملـكاً خـرج في رحلـة صيـد ماشـياً عـلى قدميـه، ونتيجـة لمشـيه الطويـل والأرض الوعـرة والأشـواك المتناثـرة، تورّمـت قدمـاه، فأمـر الملـك حاشـيته أن يضعـوا في طريـق مـروره قطـع مـن الجلـد حتـى يمنـع الشـوك عـن قدميـه، ومـن المعلـوم أنّ هـذا الأمـر متعـب جـداً للخـدم فهـم ينقلـون القطـع الجلديـة لـكلّ مـكان يتحـرك فيـه الملـك، فـكان لابـدّ مـن التغيـير، وهنـا جـاء دور العقـل ودور تبديـل الحالـة السـابقة، فأشـار عليـه أحـد مستشـاريه أن يضـع قطعـاً مـن الجلـد الصغـيرة أسـفل قدميـه «شـبيهة بالحـذاء»، وهكـذا سـيمنع وصـول الشـوك لقدمـه ويكون في ذلـك راحـة لـه ولخدمـه، وبالفعـل قـام الملـك بـما أشـار عليـه مستشـاره وبذلـك حصـل التغيـير المفيـد والـذي اسـتفاد منـه الجميـع.

البعـض يتوهّـم بـأن التغيـير سـيصلهم عـلى طبـق مـن ذهـب، والبعـض يعتقـد أنّ مجـرّد التفكـير بهـذا الأمـر يقلّـل مـن قيمتهـم

أو يسمهم بالضعف وعدم الكفاءة.

إنّ التغيير فكرة مركزيّة في ثقافتنا الإسلاميّة، وكلّ إنسان مسؤول عن تغيير واقعه ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1]، وهو مسؤول عن مكتسباته وعن أفعاله وأعماله وحركاته، فإذا أراد المرء أن يغيّر في محيطه فليبدأ من نفسه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

هنالك قواعد وضعها القرآن الكريم للإنسان في مشروع ديمومة حياته بالشكل الصحيح، ومن هذه القواعد القرآنية: قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[3]، فكلّ ماتقوم به سيرتدّ عليك خيراً بخير وشراً بشر، ذلك أنّكم ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[4]، إذا قمتم بالإحسان في حياتكم فإن هذا العمل سينعكس عليكم والعكس صحيح أيضاً.

إذن القضية مرتبطة ومتعلقة بالنفس الإنسانيّة ومايتحرك من جوهر الإنسان في عمق وجدانه، فإن هذه النفس بحاجة إلى حافز، وعلينا أن نمتلك الشعور بالحاجة إلى التغيير، لأن

(١) المدثر: الآية ٣٨

(٢) الرعد: الآية ١١

(٣) الزلزلة: الآية ٧-٨

(٤) الإسراء: الآية ٧

البعض لا يملكون الدافع ولا المحرك للتغيير فيبقى طوال حياته يعيش وفق نمط واحد، وبأسلوب واحد، وبطريقة واحدة، فنرى مثلاً أنّه يستخدم الطرق القديمة في معيشته على الرغم من وجود الوسائل الحديثة، ويستخدم البغال في تنقّلاته على الرغم من وجود النقل الحديث، ويسافر بالجمال مع وجود الطائرات، كلّ ذلك رفضاً للتغيير ورغبة منه في الهروب من الواقع الحالي.

التطور في خدمة الإنسان

إنّ ما نشهده في عصرنا من تقدّم كبير في مجالات العلوم كافة وتسخيرها في خدمة الإنسان كالفضائيات والشبكة العنكبوتيّة، والكمبيوتر، وما إلى ذلك، يشكّل دافع للنوع الإنساني نحو التطور للأفضل وطلب المزيد من الازدهار العلمي، وهنا أودّ الإشارة إلى مسألة وقضيّة في غاية الأهميّة، وهي أنّ كلّ تطور في العلم يصبّ في مصلحة الإنسان حين يراعي هذا الإنسان الضوابط الشرعيّة في استخدام هذا العلم وهذا التطور العلمي، فالوسائل الحديثة والتكنلوجيا المتطورة لها مالها وعليها ماعليها، وكلّ أمر مرتبط باستخدامك أنت لهذه الوسائل، فيمكن للإنسان أن يجعل من التلفاز محطة للتواصل والإرشاد والهداية، ويمكن أن يستخدمه في أمور

مضرّة وليست في صالحه، والدخول لعالم الانترنت هو بملء إرادتك فإن أردت الفائدة استفدت وإن أردت الضلال ضللت، إذن عليك أن تحدّد بالضبط أين تضع نفسك في قافلة التغيير؟ وما الذي يؤدّي إلى تعكير صفوها؟ وما الذي يشدّك إلى الوراء، ويمنعك من التقدم لنيل المزيد من الارتقاء والتغيير؟.

وقفة مع النفس

يقول عزّوجلّ: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾[1]، إنّ واقع قوم نوح عليه السلام يتشابه مع الكثير من الأقوام والمجتمعات التي ترفض التغيير نحو الأفضل، وتبقى تعيش في الأسوء، ولذلك نتساءل: هل سنكون ممن يغلق على نفسه باب التغيير و التقدم، ويصرّ على الباطل؟ وكيف يمكن للإنسان أن يتغيّر؟ ومن أين نبدأ بالتغيير؟ وماهي موانع التغيير؟ وكيف يمكن لنا أن نستفيد من تلك الطاقات التي سخّرها الله لنا ومن ثمّ تسخيرها لخدمة الأمة في المجالات كافة؟

إنّ عمليّة التغيير تبدأ من النفس الإنسانيّة، ويحتاج المؤمن في ذلك إلى: توفيق من الله سبحانه وتعالى وواعظ من نفسه وقبول ممن ينصحه، كما يقول إمامنا أَبِي جَعْفَرٍ

(١) نوح: الآية ٧

الثَّـانِي عليه السلام: «**المُؤْمِـنُ يَحْتَـاجُ إِلَى ثَـلَاثِ خِصَـالٍ: تَوْفِيـقٍ مِـنَ اللهِ عَـزَّ وَجَـلَّ، وَوَاعِـظٍ مِـنْ نَفْسِـهِ، وَقَبُـولٍ مِمَّـنْ يَنْصَحُـهُ**»[1]، وأمـير المؤمنـين عليه السلام يقـول: «**أحـي قلبـك بالموعظـة**»[2]، واليـوم نتيجـة للتطـور الهائـل الحاصـل فإنّـك قـادر عـلى الحصـول عـلى المعلومـات بسرعـة، ويمكـن لـك أن تتواصـل مـع مـن شـئت وتنفتـح عـلى أفـكار جديـدة، ولكـن المهـمّ هـو أن تتفحـص وتختـار مـا هـو الأحسـن والأصـدق مـن القـول والأفـكار، لأن القـرآن يقـول: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3].

يجـب عـلى المؤمـن أن يكـون حـذراً وفطنـاً عارفـاً بأمـور زمانـه كـما يقـول الإمـام الصـادق عليه السلام: «**العـالم بزمانـه لا تهجـم عليـه اللوابـس**»[4]، فـإن لم يكـن لـدى الإنسـان معرفـة خاصـة بأمـور زمانـه، لـن تكـون لديـه القـدرة عـلى إحـداث التغيـير، ولـن يقـدر عـلى تغيـير نفسـه.

فالإنسـان مسـؤول أمـام الله عـزّ وجـلّ عـن تغيـير نفسـه

(١) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل- ج ٨ - ص ٣٢٩.

(٢) المستدرك - ج ٢- ص:١٠٢

(٣) الزمر: الآية ١٧-١٨

(٤) بحار الأنوار - ج٧٥ - ص: ٢٦٩

نحو الأفضل يقول الله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾[1]، وأيضاً هذه المسؤولية ترفع درجة التحدّي فالإنسان لا ينبغي أن يكون في مؤخرة القافلة، ويقول: «سأبقى على ما أنا عليه، والأفضل لي أن أكون متلقّي ومستمع، ومن أراد التغيير فليتغير هو»، إن هذه النظرة هي عين الخطأ، بل يجب عليك أنت أن تتقدم لتكون قدوة لغيرك نحو التغيير، ألم يذكر القرآن أن دعاء عباد الرحمن هو: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[2]، لذلك يجب علينا أن نربي النفس على الطموح ونروّضها على التطلع، وننزع الخمول من أنفسنا، ونبدأ بالتغيير الإيجابي في كلّ مفاصل حياتنا، فالحافز الداخلي والرغبة لا تكفي، بل عدم الاستسلام للواقع هو المطلوب، هذا الواقع السلبي أو وساوس النفس أو همزات الشيطان -والعياذ بالله- فالشيطان يريد من الإنسان أن يبقى على ما هو عليه، إن كان فقيراً قال له ابقَ على فقرك، وإن كان مظلوماً قال له ابقَ على مظلوميتك، وإن لم تكمل تعليمك فلا بأس فغيرك يكملها إلى ما هنالك من تعاليم الخمول المذمومة.

(١) الصافات: الآية ٢٤

(٢) الفرقان: الآية ٧٤

لكي لا نكون مع المتقاعسين

إنّنا نجد القرآن العظيم يحفّز الناس بقوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[1] أي في مجال التغيير على الأرض يقول أيّها الإنسان الدور الآن دورك، اعمل واسعَ، وسيكون لك أيضاً نصيب من الإسناد الإلهي والتسديد الغيبي، وذلك لكي لا يتحول الناس إلى مجموعة من الطفيليّين أو مجموعة من المتقاعسين، فيصبحوا اتكاليّين باعتبار ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[2] فلا داعي لسعي الإنسان نحو رزقه فالخير سيأتي حيثما يكون وإن جلس في داره.

إنّنا بحاجة إلى فهم السنن الإلهيّة و الدعم الرباني لمن يسعى ويتحرك، ولابد أن نعرف معنى التوكل الحقيقي لكي لا نتحول إلى متقاعسين نبحث عن الأسباب التي تبرر هزائمنا وتراجعنا.

عن أبي عبد الله الجعفي قال: قال لي الإمام أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام: «**كم الرباط عندكم؟**».

قلت: أربعون.

---

(١) النجم: الآية ٣٩

(٢) الذاريات: الآية ٥٨

قال عليه السلام: «لكن رباطنا رباط الدهر[1]، ومن ارتبط فينا دابة كان له وزنها ووزن وزنها ما كانت عنده، ومن ارتبط فينا سلاحاً كان له وزنه ما كان عنده، لا تجزعوا من مرة ولا من مرتين ولا من ثلاث[2] ولا من أربع فإنّما مثلنا ومثلكم مثل نبيٍّ كان في بني إسرائيل فأوحى الله عزّ وجلّ إليه أن ادع قومك للقتال فإنّي سأنصرك، فجمعهم من رؤوس الجبال ومن غير ذلك ثمّ توجّه بهم فما ضربوا بسيف ولا طعنوا برمح حتّى انهزموا، ثمّ أوحى الله تعالى إليه أن ادع قومك إلى القتال فإني سأنصرك، فجمعهم ثمّ توجّه بهم فما ضربوا بسيف ولا طعنوا برمح حتّى انهزموا، ثمّ أوحى الله إليه أن ادع قومك إلى القتال فإنّي سأنصرك فدعاهم فقالوا: وعدتنا النصر فما نُصرنا، فأوحى الله تعالى إليه: إمّا أن يختاروا القتال أو النار، فقال: يا ربّ القتال أحبّ إليّ من النار، فدعاهم فأجابه منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر عدة أهل بدر فتوجّه بهم فما ضربوا بسيف ولا طعنوا برمح حتى فتح الله عزّوجلّ لهم»[3].

«ثمّ إنّ الإنسان حين تنحصر أفكاره وتصرفاته في حدود

(١) أي يجب على الشيعة ان يربطوا أنفسهم على إطاعة الإمام الحق وانتظار فرجه ويتهيؤوا دائما لنصرته. والرباط: ملازمة ثغر العدو.

(٢) أي لا تجزعوا من عدم نصرنا وغلبة العدو علينا مرة أو مرتين

(٣) الكافي - ج ٨ - ص ٣٨٢

آنيّـة، وحـين يتصـور أنّ عصفـوراً في اليـد خـير مـن عـشرة عـلى الشـجرة؛ إنّـما تتنامـى فيـه عـادة التقاعـس والخمـول والاستسـلام الـذي يفـتُّ في عضـده ويعيقـه عـن مواجهـة المشـكلات وبالتـالي عـن الوصـول الى طموحاتـه المعنويـة والماديـة.

وهـذا إمـام المتقـين عـلي عليه السلام يقـول: «**ولاينـال العبـد نعمـة إلّا بفـراق أخـرى**»[1].

فـما مـن شـك في أنّ مـن يريـد المسـتقبل لابـدّ أن يـترك بعـض لذاتـه الحـاضرة، ويعـدّ نفسـه لتجـاوز هـذه العقبـة الـكأداء مـن حـب الدنيـا والغفلـة عـن الآخـرة. وليـس ذلـك منحـصراً في الأفـراد بالـذات، بـل وينعكـس عـلى الأمـة أيضـاً؛ فـأيّ أمـة حـين تنحـصر توجّهاتهـا ضمـن أطـر محـدودة دون النظـر إلى المسـتقبل ودون السـعي إلى التقـدم الحضـاري، فسـوف لـن تبقـى متأخـرة عـن ركـب الحضـارة فحسـب، بـل وربـما يسـوقها هـذا التقاعـس والاستسـلام إلى التقهقـر، وبالتـالي إلى الفنـاء والعـدم»[2].

ونحـن حينـما ننظـر إلى ثـورة الإمـام الحسـين عليه السلام نـرى وبوضـوح أن غالبيّـة النـاس تقاعسـوا عـن نصرتـه عليه السلام، وكانـوا مـن المتقاعسـين، كلٌّ بحجّـة وسـبب، وهـذا يجعلنـا نفكـر فـي

(١) نهج البلاغة- قصار الحكم- ١٩

(٢) مبادئ الحكمة- المرجع السيد محمد تقي المدرسي- ص: ١٠٧

أنفسنا اليوم وكيف نحصّنها من الوقوع في شرك التقاعس والهروب من المسؤولية؟

«وقد روي في هذا المجال أن عبد الله بن عمر قد دُعي إلى نصرة الحسين عليه السلام ولكنه امتنع عن ذلك طالباً من الداعين له أن يتركوه منشغلًا بالصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحجة أنّ هذا العمل أكثر ثواباً عند الله، هذا في حين أنّ الأمّة كانت تنحرف، والفساد يعمّ، والإسلام في خطر، فما فائدة مثل هذه الصلاة والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**إذا ظهرت البدعة في أمّتي فليُظهر العالم علمه، فإن لم يفعل فعليه لعنة الله**»[1]؟ إنّ الصلاة التي تغطّي على تقاعس الإنسان وهزيمته واستسلامه إنّما هي مكاء وتصدية»[2].

أثر العلم والقراءة في صناعة التغيير

لأن التغيير مرتبط بكلّ جوانب الحياة، ولأننا لا نبحث عن مجرد التغيير بل عن التغيير في الاتجاه الصحيح كان لابد للتغيير أن يستند إلى الحقائق وليس الأكاذيب، ومن هنا كانت الدعوة إلى التعلم و القراءة في مجالات الحياة كافة.

فعلى سبيل المثال حينما يدعو الإسلام للتفقه في الدين،

(١) بحار الأنوار- ج ٢ - ص ٧٢

(٢) الإمام الحسين عليه السلام قدوة الصديقين- المرجع السيد محمد تقي المدرسي- ص٨٧

فإنّه لا يحصره بالفقهاء والعلماء فقط، بل حتّى التاجر المشغول في متجره يجب عليه أن يتفقّه في الدين، ولا يصحّ أن يقول: ماشأني والفقه، فعن الأصبغ بن نباتة قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول على المنبر: «**يا معشر التجار! الفقه ثمّ المتجر، الفقه ثمّ المتجر، الفقه ثمّ المتجر**» إلى أن قال: «**التاجر فاجر، والفاجر في النار، إلّا من أخذ الحقّ وأعطى الحق**»[1]، إذن فإنّ على التاجر أن يعلم ما له وما عليه حتّى يأمن عقاب الله سبحانه وتعالى، بل على الإنسان أن يتفقّه في جميع مسائل حياته صومه وصلاته وحجّه وخمسه فعلمه بهذه المسائل يساعده على التغيير في حياته.

القراءة هي أوّل ما أمر به الله سبحانه وتعالى نبيّه إذ قال عزّوجلّ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[2]، وهذه دعوة لنا نحن جميعاً أمّة محمد صلى الله عليه وآله أن نقرأ في كلّ شيء، نقرأ واقعنا وماضينا ومستقبلنا، كي لا يبقى الإنسان في دوّامة الخمول، ولا في مستنقع الجهل، ولا مستسلماً لواقعه الصعب، عليه أن يجد الحلول، حتّى لو اضطرّه الأمر للهجرة حيث المستقبل الأفضل والواقع الأنسب.

القراءة ليست مقتصرة على ترتيل تلك الحروف التي

(١) أصول الكافي، ج ٥، ص ١٥٠

(٢) العلق: الآية ١

تتشكّل منها الكلمات ومن الكلمات تتوضح المعاني، بل أن نفهم واقعنا ومتطلباتنا واحتياجاتنا لننطلق منها نحو التغيير ونحو التطوير ونحو حياة أفضل وعلم أفضل ومكانة أفضل.

عندما يرى الإنسان تحصيله العلمي لا يتناسب ولا ينسجم مع واقعه العملي عليه أن يكافح ويجاهد من أجل أن يحصل على نور العلم ويدفن بذلك ظلمة الجهل، ربّنا عزّ وجلّ يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1]، جاهدوا بمختلف أنواع الجهاد؛ جهاد النفس جهاد العلم جهاد الرزق، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله**»[2]، لا ينبغي أن يتوقف الانسان ليقول أغلقت الأبواب، ولا ينبغي أن يستسلم لضعفه أو عجز مجتمعه، بل عليه أن يسعى بكلّ مالديه من قوّة للتغيير من واقعه، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[3]، حتّى لا يستسلم الإنسان فقد فتح الله له باب الهجرة من أجل تحسين حياته وتأمين رزقه، والحفاظ على دينه، فالتغيير لا يمكن أن يأتي من خلال

(١) العنكبوت: الآية ٦٩

(٢) أصول الكافي - ج٥ - ص:٨٨ - ح١

(٣) النساء: الآية ٩٧

الاستسلام أو الخضوع للواقع، أو إيجاد المبررات التي لا تسمن ولا تغني من جوع، مثلاً نرى بعض الطلبة يتذرّع بمبررات انهزاميّة، عن جدوى الاستمرار بالتحصيل العلمي، والمجتمع يعاني من أزمة توظيف حقيقيّة فلماذا كلّ هذا الجهد والعناء في سبيل أمر لا يمكن تحصيله؟ هذه هي النظرة الخاطئة للأمور فالعلم نور ينير حياة الإنسان قبل جيبه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**طلب العلم فريضة على كلّ مسلم، ألا إنّ الله يحبّ بغاة العلم**»[1]، بغضّ النظر عن بعض الأزمات طلب العلم ليس محصوراً بالوظيفة، بل إنّ هذا العلم سيفتح أمامك الآفاق ويوضح لك الرؤى.

عش الحقيقة لا الواقع

من يستسلم لواقعه مثله كمثل النسر الذي ولد نسراً ومات دجاجة، هي قصة اعتباريّة و مع ذلك تعني الكثير، في يوم من الأيام سقطت بيضة نسرٍ من العش و تدحرجت ووصلت واستقرت في عش مخصص لبيض الدجاج، جاءت الدجاجة وجلست على هذه البيضة ظنّاً منها أنها من بيوضها، وبعد فترة من الزمن خرج هذا النسر بجماله وسحر منظره، لكن مشكلته أنه عندما خرج للدنيا خرج مع

(١) أصول الكافي - ج١ - ص:٣٠

مجموعة من الدجاج، فعامل نفسه كدجاجة، يتحرك مثلهم ويأكل كأكلهم، في يوم من الأيام نظر إلى السماء وإذا بمجموعة من النسور تحلّق في الجو، فبدأ يحرك جناحه محاولاً الطيران، وعندما نظر إليه الدجاج أخذوا يضحكون عليه وعلى حركاته ومحاولاته، وسخِروا منه، وعندما خضع لهم واستمع لقولهم وتوقف عن المحاولة، كانت النتيجة أن استسلم للواقع الذي هو فيه، وكفَّ عن حلمه في الطيران، فعاش في الحقيقة بهيئة النسر ولكنه مات في الواقع دجاجة.

هكذا هم بعض البشر يعيشون المثبّطات الداخليّة، الاستسلام للواقع، الهروب إلى الإمام، الهروب من الواقع، فيغمضون عيونهم عن الحقائق ويعيشون الواقع، حينما انطلق الإمام الحسين عليه السلام نظر الناس إلى الواقع بدلاً من النظر إلى الحقائق، فقالوا إنّ الحسين عليه السلام لا يملك القوّة ويزيد يملك الجيوش، فأغمضوا عيونهم عن قوّة الحق واستسلموا لقوة الواقع، ونحن اليوم نرى أنّ قوّة الحق أقوى من قوّة الواقع، فيزيد زال وذهب بينما بقي الإمام الحسين عليه السلام و حقّه مخلداً.

هنالك ظاهرة سيّئة -مع الأسف- منتشرة في مجتماعاتنا، نرى بعض الأفراد حينما يجدون من يحاول أن ينطلق ويخرج من بيئته نحو الأفضل ونحو التغيير، يثبّطونه ويثقلون حركته ويقذفون به إلى الوراء، فتسمعهم يخاطبونه: إلى أين تذهب؟

إلى أيـن تمـضي؟ لمـاذا تـدرس؟ لمـاذا تعمـل؟ لمـاذا تهاجـر وتـترك أهلـك وعشـيرتك؟ لمـاذا ترهـق نفسـك وتتعـب جسـدك؟ مـا فائـدة التغيـير؟ إن تعمـل بتفـاني أو لا تعمـل سـتحصل عـلى نفـس المرتـب في نهايـة الشـهر، وغـير ذلـك مـن المحبطـات.

هـذا ممـا يهـدم المجتمعـات ويسـلب الإخـلاص مـن النـاس، فديننـا هـو ديـن الإخـلاص والثقـة والدقـة، والديـن التنافـس في مرضـات الله سـبحانه وتعـالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾[1]، هـذا يعنـي أنّ علينـا أن نكـون دائـمًا في أوّل القافلـة، ولكننـا نـرى أنّ سياسـة الإحبـاط والتثبيـط غالبـة لـدى البعـض فـلا يمكـن أن يـرى فكـرة جديـدة أوعمـلاً جديـداً أومشروعـاً متميّـزاً، إلّا ونـشر الاحبـاط و روّج للخسـارة والهزيمـة عوضـاً عـن الربـح والفـوز.

إنّ كلّ هـذا الـكلام وهـذه الإيحـاءات الشـيطانيّة لا يجـب أن تمنـع الإنسـان مـن أن ينطلـق نحـو التغيـير في حياتـه والتغيـير في مجتمعـه، منطلقـاً مـن رؤيتـه الحقيقيّـة للحـق والحقائـق، دون أن يُغفـل مـا يتطلبـه الواقـع مـن جهـد وعمـل.

(١) الواقعة: الآية ١٠ – ١١

عاشوراء ثورة التغيير الكبرى

لابدّ لنا في كلّ عام ونحن نحيي عاشوراء أن نحيي قيم ثورة الإمام الحسين عليه السلام فينا وفي مجتمعاتنا، فننطلق نحو التغيير عبر بوابة عاشوراء متسلّحين بسلاح الوعي والإيمان، يجب أن نحيي هذه الأيام حتّى نرتقي بأنفسنا، وحتّى نغيّر أيضاً من واقعنا السيّئ، من عَمَلٍ غيرِ صالحٍ إلى عَمَلٍ صَالح، ومن عمل صالح إلى عمل أصلح، في هذه الأيام ينبغي علينا أن نكون مع الحسين عليه السلام، ونتعلّم من عاشوراء المواقف والمبادئ، فلا نهادن على ديننا، ولا نجعل الشلل يصيب جسدنا الإيماني، فيستشري المرض في بدننا وتظهر الصفات السيّئة في تصرفاتنا.

قد يكون من حولنا مَن لم يلتزم بالحق، ولم يتمسك بمبادئ الحسين عليه السلام، فلا نستسلم له ولا نتخوف من مصارحته بخطأه وانحراف توجّهه، لا سيما لو كان هذا الشخص من أصدقائنا، فالبعض يتوجّس خيفة من كلمة الحقّ، فيتوهّم أنّه لو صارح أصدقاءه سيرتدون عليه وينبذونه ويتركون صداقته، فيفضِّل البقاء على الباطل على الخوض في صراع مع الحق، لقد كان مما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر: «**يا**

أبـا ذر الحـقّ ثقيـل مـر، والباطـل خفيـف حلـو»[1].

إنّ مداهنـة الباطـل والسـكوت عـن الخطـأ والرضـا بـه هـو مـا يعيـق تغيـير واقعنـا، ويجعـل مـن مجتمعاتنـا تتحـول مـن سـيئ إلى أسـوء، إنّ مـن أهـمِّ الـدروس التـي نتعلّمهـا مـن عاشـوراء هـي قـول الحـق وإن كان مـرّاً، قـول الحـقّ وإن كان عـلى حسـاب منفعتـك وصداقاتـك، فـلا تخضـع للواقـع الموجـود حولـك.

إنّ أسـوء مـا يتولّـد عـن الخضـوع هـو منـع الإنسـان مـن التغيـير، وانعـدام الثقـة بالنفـس، والجهل بحقيقـة النفـس، فالمعرفة تعطـي للإنسـان الثقـة، فـ«**ماجهـل ولا ضـاع امـرؤ عـرف قـدر نفسـه**»[2] كـما يقـول نبـي الله موسـى عليه السلام، ويقـول أمـير المؤمنـين عليه السلام: «**أفضـل العقـل معرفـة الإنسـان نفسـه، فمـن عـرف نفسـه عقـل، ومـن جهلهـا ضـل**»[3] فمعرفـة النفـس وعرفـان قدرهـا يفتـح للإنسـان الآفـاق، فمـن عـرف أنّ ثمـن نفسـه الجنّـة لم يفـرّط فيهـا ويلوّثهـا بالذنـوب بـل سيسـعى للارتقـاء بهـا وتغييرهـا نحـو الأفضل،يقـول الإمـام موسـى بـن جعفـر عليه السلام: «**ليـس لأنفسـكم ثمـن إلّا الجنّـة فـلا تبيعوهـا بغيرهـا**»[4].

(١) بحار الأنوار- ج٧٤ -ص: ٨٤

(٢) بحار الأنوار- ج٦٥ -ص:١٥٧

(٣) ميزان الحكمة - ج ٣ - ص ١٨٧٦

(٤) بحار الأنوار -ج١ -ص: ١٤٤

إنّ معرفة النفس و الارتقاء بها سبيل لمعرفة الخالق، يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**ومن عرف نفسه فقد عرف ربّه**»[1]، ولا يتسنّى للإنسان أن يدرك حقيقة النفس إلا بسعيه لإصلاحها وإزالة الحجب عنها كحجاب الحسد وحجاب العجب وحجاب الكبر وحجاب الجهل، فالنفس قد تتكاثر عليها الحجب فتمنعها عن المعرفة الحقيقيّة. وعلينا أن ننتبه إلى أنَّ أحد العوائق الذي يحول دون إمكانيّة التغيير في حياتنا هو عدم المعرفة الحقيقيّة لقدر ومكانة الإنسان لنفسه.

إنّ من أهمّ عوامل النجاح في مشروع التغيير هو معرفة مكامن العيب ومواطن الخلل عند الإنسان، فليس عيباً أن نبحث عن هذه العيوب ولكن العيب أن نبقيها في داخلنا ونجذّرها في أنفسنا، وأن ننزلق معها في قضايانا، عندما نتوجّه إلى عرفة في ذلك اليوم العظيم نقوم بذكر أخطائنا وعيوبنا ونقرّ بذنوبنا أمام الله سبحانه وتعالى، ونبدأ بالإقرار إيذاناً منّا بإعلان التغيير وبدءِ التحول نحو الأفضل.

لم يكتفِ الإمام الحسين عليه السلام في ثورته بالقتال ومحاربة الظالمين بل عمد إلى توضيح مواضع الخلل وأسباب الثورة، فحينما أراد عليه السلام أن يحدث تغييراً عظيماً في الأمّة يمتدّ صداه إلى

(١) بحار الأنوار – ج٢ – ص: ٣٢

اليوم أصرّ على توضيح جوانب الخلل في الأمّة فبيّن الخلل في الحاكم ونظام الحكم بقوله: «**يزيد رجل فاسق شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله**»[1]، كما بيّن الخلل في نماذج من الناس الذين يعبدون الدنيا بقوله: «**إنّ الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديّانون**»[2]

ما أحوجنا اليوم وانطلاقاً من عاشوراء أن نبدأ بمصارحة ومحاسبة أنفسنا، ونؤكّد على ديمومة هذه المسألة ليلاً ونهاراً، هذه العشرة الكربلائية تمضي سريعاً بعبراتها وعبرها، ولكن تبقى تبعاتها في أنفسنا لنستضيء بهذا النور الذي يشعّ في أيام الحسين عليه السلام ونقف مع ذواتنا ونعترف ونذكّر بعضنا بعضاً، عاشوراء محطة للتذكير ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3]، في هذه الأيام نتذكر الأوامر الإلهيّة، والرحمة الربانيّة، والتعاليم النبويّة، والرعاية الملائكيّة فالله سبحانه وتعالى يرسل ملائكته ليذكّروا الناس بأوقات الصلاة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما من صلاة يحضر وقتها إلّا نادى ملك بين يدي الناس أيّها الناس: قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على ظهوركم**

(١) بحار الأنوار – ج ٤٤ – ص ٣٢٥

(٢) تحف العقول – ص ٢٤٥

(٣) الذاريات: الآية ٥٥

فأطفئوها بصلاتكم»[1]، فهذا التذكير من لطف الله على عباده، ورحمته التي وسعت كلّ شيء، ولكن مع الأسف ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[2]، هنالك جهل وتعصب أعمى لدى البعض، وجحود تام وكامل للنعم الإلهيّة وللرعاية الربانية، علينا أن ننطلق في هذه الأيام مع ركب الحسين عليه السلام بكل حيثيّاته ومفاصل أهدافه، وينبغي فعلاً أن ندخل في ركب الحسين عليه السلام قولاً وعملاً.

نحن أمام عاشوراء التغيير التي تولّد لنا الحافز وتعطينا الإمكانيّة للتقدّم. في كلّ مفصل من مفاصل عاشوراء حركة تغيريّة، فتأتي كربلاء بأشعتها ونورانيّتها وبأريحيتها وبأطفالها وبأبطالها وبكبارها وبنسائها لتعطينا دروساً في التغيير، ورفض للظلم، ودعم العمل و التقدم لبناء مجتمع الكرامة.

القاسم بن الحسن عليه السلام ونصرة الحق

الانطلاق نحو التغيير المستند إلى الحق لا يعرف حدوداً للزمان و المكان؛ ففي كربلاء انطلقت مع الإمام الحسين عليه السلام ثلّة مؤمنة بالحق المتمثّل بالإمام عليه السلام دون أن تنظر إلى الاعتبارات الماديّة من فقر أو غنى، من صغر سن أو

(١) وسائل الشيعة - ج٤ - ص: ١٢٠

(٢) العلق: الآية ٦-٧

كبره، ففي الوقت الذي كان هنالك الشيخ الكبير المقاتل إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام كان هنالك الفتى الذي لم يبلغ الحلم، وكلّهم ينظر إلى هدف سامي وهو نصرة الحق وتغيير الواقع الفاسد وإصلاح الأمة.

إنّ القاسم عليه السلام هو أحد المعالم الشاخصة في ثورة كربلاء، وإنّ موقفه البطولي المبنيّ على وعي تام بمحوريّة الحق في الحياة كان ولايزال أنموذجاً يحتذي به طلّاب الحقّ والحقيقة والحقوق.

هذا الفتى اليافع لَمّا سمع عمّه الحسين عليه السلام في ليلة العاشر من شهر محرم ينعى نفسه وينعى أصحابه ويخبر الحاضرين بأنّهم لمقتولون غداً جميعاً، هنالك انبرى سائلاً: يا عمّاه هل أكون أنا أيضاً ممن يُقتل غداً؟

وقبل أن يجيبه سلام الله عليه، سأله: «**ولدي قاسم كيف تجد طعم الموت؟**».

قال بكل عفويّة: يا عمّاه، والله الموت بين يديك عندي أحلى من العسل. ثمّ أخبره الإمام عليه السلام بأنّه ممن يُقتل.

فلندقّق في هذا الموقف، طلبه للشهادة ولَمّا تقع الواقعة بعد، وكلمته الرائعة بأنَّ نصرته للإمام الحسين عليه السلام وفيها

موتــه أحــلى مــن العســل؛ هنــا نجــد الحافــز الكبــير للتغيــير، والإرادة الجديّــة للتحــول نحــو المصــير المنشــود، والرغبــة في الوصــول للمكانــة الرفيعــة والمنزلــة العاليــة.

قيمة العمل

في الإسلام

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾[1]

إنّ السعي والعمل من أهمّ عوامل عمارة الأرض وبناء المجتمعات وإقامة الحضارات، كما أن العمل هو أحد عوامل التقدم والتطوّر في المجتمعات، وقد جعل الله سبحانه وتعالى العمل وسيلة يحفظ من خلالها الإنسان شخصيّته وكرامته، ويبني دنياه وآخرته، فيسعى ويعمل من أجل الكدّ على نفسه، ومن أجل الكدّ على عياله، كما أنّه يعمل الصالحات ليبني آخرته.

إنّ نهضة أيِّ مجتمع ونموّه مرهونة بعمل أبنائه وسعيهم الدءوب لتحقيق الآمال والتطلعات لأن الحياة لا تعترف

(١) النجم: الآية ٣٩ - ٤١

بالأماني بقدر ما تعطي للعاملين والكادحين، فمن جدّ وجد ومن زرع حصد.

وقد أولت المجتمعات المتقدّمة العمل والعاملين عناية خاصّة واعتبرت ذلك من أهم الأسباب لرقيّها ونهضتها، فاهتمّت بتوفير فرص العمل لمواطنيها وضمان حقوقهم من أجل أن يبدعوا في مجالاتهم، وهذا ما يميّز مجتمعاً عن آخر في التنمية والإنتاج.

ثمّ إنّنا إذا عرفنا الهدف من وجود الإنسان استطعنا أن نحدد وظيفته في هذه الأرض، ومنها نستمد نظاماً وأساساً يخضع له كلّ علم وعمل أيّاً كان نوعه، وفي قول ربّنا عزّوجلّ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] فلسفة عظيمة نستطيع أن نستخلص منها هذا الهدف؛ إذ إنّ الإنسان وُجد وخُلق ليقيم ويبني على هذه الأرض من أشياء الكون، حياة طيبة يتوافر فيها كلّ ما يحتاج إليه الناس وينتفعون به في حياتهم.

ونظام الإسلام الذي يقوم على احترام الإنسان، وعلى صيانة حقوقه وكرامته، يرى في العمل ركيزة أساسيّة لتطوّر الإنسان، ولذلك فقد دفع الناس نحو الكسب والعمل، واعتبر ذلك شرفاً للمرء عندما يكسب ماله وطعامه من

(١) البقرة: آية ٣٠

عمل يده، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أزكى الأعمال كسب المرء بيده**»[1]، ولأن الكون قائم على العمل والحركة والأسباب كحركة الكواكب والنجوم والرياح والمياه، فإن على المرء أن ينسجم مع هذه الحالة الكونية، فلا يكون جامداً في موقعه وإنما عليه أن يتحرك بالأسباب الطبيعيّة، فمع أنّ الله عزّوجلّ هو الرزّاق ذو القوّة المتين إلّا أنّه أمر الناس بالسعي والحركة، فقال ربّنا عزّ وجلّ: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[2].

ولأهمية فضل العمل والعاملين فقد اشتغل بذلك حتّى الأنبياء والأولياء والعظماء، فقد جاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأنّ نبي الله داود كان يأكل من كسب يده**»[3]، كما أنّ كونهم أنبياء اصطفاهم الله سبحانه وتعالى واجتباهم لا يعطيهم الحق أن يجلسوا ويتميّزوا على الناس، ولذلك فقد عمل نبي الله نوح عليه السلام بالنجارة فكان نجاراً، وإدريس عليه السلام كان خياطاً، ويوسف عليه السلام كان خازناً للمال، ويعقوب عليه السلام كان راعياً، وداوود عليه السلام كان يصنع الدروع.

(١) ميزان الحكمة - ج ٣ - ص ٢٦٩٩

(٢) النجم: الآية ٣٩

(٣) البداية والنهاية - ج ٢ - ص ١٣

يقول ربّنا عزّوجلّ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[1]، الشكر الذي تتحدث عنه الآية الشريفة هو «الشكر العملي» أي الاستفادة مذن تلك المواهب والنعم في طريق الأهداف التي خُلقنا لأجلها، والمسلّم به أنّ الذين يستفيدون من المواهب الإلهية في طريق الأهداف التي خلقت لأجلها هم القلّة القليلة.

نبي الله موسى عليه السلام أيضا عمل عشر سنوات عند نبي الله شعيب وكان يرعى الغنم، كذلك رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم عمل بالتجارة بأموال السيدة خديجة أم المؤمنين عليها السلام، كما عمل صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً برعي الأغنام، وعمل أمير المؤمنين عليه السلام وسقى النخل وحفر الآبار، ومن بركات عمله أنّ هذه الأبار مازالت موجودة إلى اليوم وتسمى باسمه «آبار علي».

وحتّى الأئمة عليهم السلام كانوا ممن يعمل ويكدّ ويجتهد، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**ما كنت أرى أن مثل علي بن الحسين يدع خلفاً - لفضل علي بن الحسين - حتى رأيت ابنه محمد بن علي فأردت أن أعظه فوعظني.**

فقال له أصحابه: بأي شئ وعظك؟

قال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة،

(١) سبأ: الآية ١٣

فلقيت محمد بن علي وهو متكئ على غلامين له أسودين - أو موليين له - فقلت في نفسي: شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا! أشهد لأعظنه؟ فدنوت منه فسلمت عليه، فسلم علي ببهر[1] وقد تصبب عرقاً، فقلت: أصلحك الله، شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على مثل هذه الحال في طلب الدنيا! لو جاءك الموت وأنت على هذه الحال؟!

قال: فخلّى عن الغلامين من يده، ثم تساند وقال: «لو جاءني والله الموت وأنا في هذه الحال، جاءني وأنا في طاعة من طاعات الله، أكفّ بها نفسي عنك وعن الناس، وإنما كنت أخاف الموت لو جاءني وأنا على معصية من معاصي الله».

فقلت: يرحمك الله، أردت أن أعظك فوعظتني»[2].

أي أنّ العمل عبادة وطاعة لله سبحانه وتعالى، فالعبادة التي تشغل الإنسان عن كفّ يده عن الناس ليست عبادة، وليس معيباً أن يعمل المرء، إنما المعيب أن تبقى محتاجاً أو عالة على الآخرين أعطوك أو نهوك، كما أن طبيعة العمل لا تهمّ صغيراً كان أم كبيراً، راقياً كان أم وضيعاً، المهم في هذا رفض

(١) البهر: تتابع النفس

(٢) الإرشاد - الشيخ المفيد - ج ٢ - ص ١٦٢-١٦٣

حياة الخمول والجفاء أو العيش من كدح وعرق الآخرين، إنّنا -مع الأسف- نسمع الانتقادات من هنا أو هناك بدافع الإهانة أو الحطّ من عمل دون عمل، أوالحطّ من قيمة العاملين، وفي حقيقة الأمر هؤلاء هم الأولى بالاحترام والتقدير لأنّهم يؤمنون بقيمة ما يقومون به، ويرفضون أن يصبحوا عالة على غيرهم، بل إنّهم يتطلّعون من خلال عملهم هذا ـ ولو بشكل محدود وعلى قدر الإمكان ـ إلى المساهمة في عملية النمو الاقتصادي والتطور في مجتمعاتهم.

لا يضيع أجر العاملين

يقول الله عزّوجلّ: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾[1]، والخطاب هنا موجّه لهذا العامل عزيز النفس، كريم الخلق، عفيف الطبع، الذي يكره مايسيئه ويشينه، بعد أن أعزّه الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[2]، فبدلًا من أن يتقاعس عن العمل ويتكاسل عن الكسب، ويمد يده للناس سائلاً من الناس المال فهو يجتهد ليكسب قوت يومه وقوت عياله، وهو العالم بأنّ كلّ مايقوم به هو بعين الله تعالى، وأن الله لا يضيع أجر العاملين، وفي هذا يقول ربّنا عزّوجلّ:

(١) آل عمران: الآية ١٩٥

(٢) الإسراء: الآية ٧٠

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾[1]، يعني هذه الذَّرَّة التي لا تُرى بالعين المجردة هي بعين الله سبحانه وتعالى ولها من الأهمية عند الله الشيء الكثير، والإسلام حين جعل هذه الأهميّة للعمل في الحياة البشريّة، فلأنّه لا طريقة يتمكّن بها الإنسان من تحقيق قوانين الاستخلاف في الأرض وعمارتها إلا بالسعي والعمل، وبالتالي الوصول إلى العبادة التي يتسامى بها الإنسان عند الله سبحانه وتعالى، كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ: «**العبادة سبعون جزءًا، أفضلها طلب الحلال**»[2].

وذهبت تعاليم الإسلام وقيمه إلى احترام العمل وتقدير العاملين، لقد رأى رسول الله ﷺ رجلاً يده خشنة من كثرة العمل فقال ﷺ: «**إنّها يد يحبّها الله ورسوله**»، ودقّقت تعاليم الإسلام على إتقان العمل بدلاً من الاكتفاء بإنجازه فحسب فقال ﷺ: «**إنّ اللّه تعالى يحبُّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[3]، إنّ عمارة الأرض قائمة على السعي والعمل ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾[4]، و ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[5]، وشجع الإسلام على

(١) الزلزلة: الآية ٧

(٢) وسائل الشيعة- باب ٤ من أبواب مقدمات التجارة، ح٦

(٣) كنز العمال - ج ٣ - ص ٩٠٧

(٤) الملك: الآية ١٥

(٥) الانعام: الآية ١١

التنافس من أجل الوصول إلى الأفضل وتحقيق الأحسن ولولا السعي والحركة لما تعاقبت هذه الحضارات الإنسانيّة.

إنّ العمل من أهمّ المسائل التي أفرد لها الإسلام حصّة واسعة في التشريع على صعيد المعاملة، وعلى صعيد الأخلاق، وذلك لأنّ العمل بذاته لبنة مهمّة في النظام الاقتصادي والبناء الاجتماعي، وركيزة أساسية في التطوير الإنساني نحو الأفضل والأسمى في عالم الفرد والمجتمع، ولذا نرى الأنبياء والأولياء يندفعون إلى العمل ولا يتمايزون عن غيرهم من جهة طلبهم للعمل، ولا يأكلون من بيت المال إنّما يأكلون من كدّ عرقهم وجبينهم.

إنّ مما يكتسبه الإنسان من العمل هو تعوّده على النشاط والحيويّة، وتمرّنه على الشعور بالمسؤولية تجاه نفسه وتجاه من يعيلهم وتجاه المجتمع، بخلاف الفرد الخامل الكسول الذي لا يحسن صنعاً ولا يتقن مهنة، فهو حيٌّ ميت عديم الإحساس، عديم الشعور، وقد حذّر الإسلام الناس من الاتكال على بعضهم البعض ولذلك أمرهم بالسير في الأرض لتغيير حياتهم، ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾[1]، أيّها الناس تحرّكوا وانتشروا في أرجاء

(١) الملك: الآية ١٥

المعمورة ففي حركتكم رزقكم، وفي سعيكم نجاتكم، كما ينبغي أن يجاهد الإنسان حتى تنفتح أمامه الآفاق والسبل التي يصل من خلالها إلى العيش الكريم ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[1].

لقد أوجب الإسلام السعي على الإنسان في طلب الرزق وتأمين احتياجاته لكفاية نفسه وكفاية عياله ومتعلّقيه، وجعله مظهرًا من مظاهر العلاقة الإيمانيّة والارتباط والصلة بالله سبحانه، يقول الله في كتابه العزيز: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾[2]، بالعمل يجسّد الإنسان التوكّل على الله والاعتماد عليه في كلّ شؤونه وأموره، لأنّه عزّوجلّ المالك الفعلي لكلّ ما في الوجود، وهو الذي بيده خزائن السماوات والأرض، والإنسان عاجز عن بلوغ قصده إلّا ما يسّره الله له، ولهذا حين يسعى ويتحرك في طلب المعاش فإنه يتحرك من خلال أمر الله سبحانه والتوكّل عليه، وذلك يفتقر إلى التقوى والإيمان وتسليم الأمور لله عزّوجلّ.

معرفة قيمة العمل

«لو أنّ المسلمين عرفوا قيمة العمل كما كان أسلافهم

(١) العنكبوت: الآية ٦٩

(٢) الكهف: الآية ١١٠

يعرفونها يوم انبعث الجيل الأول منهم لاستطاعوا أن يحرّروا العالم، وينشروا عليه ألوية العدل والرفاه، ولحقّقوا أهدافهم منذ زمن بعيد.

وللأسف فمنذ القرن الرابع الهجري انتشرت بين المسلمين الروح الصوفيّة بمفهومها السلبيّ؛ هذه الروح التي حوّلت النشاط والعمل والاجتهاد إلى أوهام وخرافات وتخيّلات وهروب من الحياة، ومنذ ذلك اليوم بدأت المسيرة العكسية في حضارة المسلمين؛ أي إنّ هذه الحضارة بدأت بالهبوط والانهيار حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن.

وعلى سبيل المثال فإنّ الفلّاح المسلم الذي كان يقوم مبكّراً بعد أن يؤدّي صلاة الفجر ليتّجه إلى مزرعته، ويشق الأرض، ويشرف عليها حتّى حلول الظلام. غير أنّ حبّه لأرضه وعمله قد انعدم من حياته الآن تقريباً، لأن ديدن الفلاحين اليوم في البلدان المسلمة أن يتركوا أراضيهم، ويتوجّهوا نحو المدن بحثاً عن الرفاهية الأكثر والعمل الأقل.

إنّ هذه الروح المتكاسلة المتقاعسة هي التي جعلتنا نعيش هذه الأوضاع المتردّية، وبصفتنا حملة رسالة ودعاة إلى الإسلام لابدّ أن ننمّي في أنفسنا روح العمل وهمّته وحبّه.

إنّ الإنسان بنظرته النقيّة، وبالطاقات التي أودعها الله تعالى

فيه مؤهّل لإنجاز الأعمال العظيمة، ولكنّ الأغلال التي قيّد بها نفسه هي التي تجعل العمل الصالح ثقيلًا عليه. ولو ترك -هذا الإنسان- نفسه على سجيّتها، ولم يلوّث فطرته بالأوهام والظنون والتمنيات والنفاق، لكان أنشط عملًا، وأشدّ رغبة في العطاء والتحرّك.

فمن الممكن أن ترى إنساناً يجلس في حلقات الذكر من الصباح حتّى المساء، ويردّد كلمات لا يفهمها، ويجمّد كلّ طاقاته، وطاقات المجتمع.. في الحقيقة إنّ هذا الإنسان ذو فطرة ممسوخة، والقيود هي التي منعته من التحرّك كالخوف من الطبيعة، والتهيّب من المستقبل والمجهول، فترى الأماني الباطلة معشعشة في ذهنه، وترى تفكيره منصبّاً على أن يصل إلى أهدافه عبر أقرب الطرق... وهذه كلّها قيود تحول دون حركة الإنسان.

ولو أنّ هذا الإنسان تحرّر من هذه القيود لغمر النشاط والتحرّك كيانه، ولرأيت أنّ من الصعب عليه أن يجلس في مكان واحد، ولرأيته يُصاب بالملل والضجر عندما يُكلّف بالبقاء في مكان واحد. ولذلك فإنّ السجن إنّما جُعل عقوبة وتأديباً للإنسان، لأن طبيعته ترفض السكون والجمود، وهذا ما يفعله الطغاة مع المجاهدين في محاولة منهم لتحطيم روحهم الوثابة. ولكنّ الذين يسجنون أنفسهم في زنزانات القيود والأغلال

النفسيّة، فإنّما يرحّبون بهذا السجن الاختياري بسبب الأغلال المحيطة بأنفسهم، وبسبب فطرتهم الممسوخة.

وبناء على ذلك فإذا ما أحسسنا في أنفسنا بحبّ الراحة، والميل إلى الكسل، فلابد أن نتّهم أنفسنا هذه، ونعلم أن فطرتنا قد تلوّثت»[1].

الإيمان سبيل العمل الصالح

الإيمان والعمل الصالح متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فكما يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**الإيمان ما استقر في القلب وأفضى به إلى الله عزّوجلّ، وصدّقه العمل بالطاعة لله، والتسليم لأمره**»[2]، كما أنّ قيمة الإيمان والعمل الصالح هي القيمة الأساسيّة التي يقاس بها الأشخاص في المجتمع الإسلامي على اختلاف انتماءاتهم، فهل عملك مصداق لإيمانك؟ وكيف تتولد هذه المصداقيّة في نفسك؟ كيف يمكن أن يكون عملك وفعلك دليل إيمانك؟

من يريد أن يتحدث عن التواضع لا يحصر ذلك بالكلام فقط وطرح النظريات والمحاضرات، بل لا بد من وجود سلوك يهدي إلى حقيقة التواضع في نفس المتكلم، ولا بد من

(١) الإسلام حياة افضل- المرجع السيد محمد تقي المدرسي- ص: ٣٧-٣٨

(٢) بحار الأنوار - ج ٦٥ - ص ٢٥١

وجود مادة عمليّة تُظهر ذلك، فأنت بحاجة للعمل لتتجلى هذه الخصوصيّة في شخصيّتك.

من هنا تحرّك الإسلام من خلال الواقع الإنساني والتكوين البشري، وأوجد مايتناسب وطبيعة الإنسان وظروفه واحتياجاته بشكل كامل، فنهى عن الكسل والخمول والدعة والراحة وحب النوم، من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام: «**ما أنقض النوم لعزائِمِ اليوم**»[1]، وحثّ على العمل الصالح والمسارعة إليه لبناء المجتمعات، كما أن الإسلام يعطي العمل الصالح القيمة الأساسية ويجعله محور التنافس في المجتمع. ففي أكثر من مائة وعشرين موضعاً يؤكد القرآن الحكيم على الربط العضوي بين الإيمان والعمل الصالح، ويصرّح بأنّ الذين يرثون الأرض هم الصالحون؛ والصلاح ليس شيئاً جامداً، وإنّما هو حركة وعمل في الاتجاه الصحيح، وهو ليس فقط في أمور الدين كالصلاة والصيام والزكاة والحج، وإنّما كلّ عمل يحكم العقل والدين بصلاحه، فبناء المساكن صلاح، وتعبيد الشوارع صلاح، وإقامة المصانع صلاح، وزراعة الأرض صلاح، وكلّ ما كان من شأنه عمارة الأرض فهو عمل صالح.

(١) بحار الأنوار - ج٣٤ - ص: ٤٤

ومن جهة أخرى فالإسلام يحارب العمل الفاسد، ويهاجم المفسدين بعنف شديد ويتوعّدهم بأشدّ العذاب، يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

ويقول ربّنا:

﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[2].

أثر التربية في بناء المجتمع الحيوي

يُحكى أنّ أمّاً كانت تهتمّ بولدها اهتماماً بالغاً، وترعاه أكثر من المطلوب بل كانت تفرط في دلاله، أمّا الأب فكان بخلاف الأم فقد كان يسعى لتربيته وتوجيهه توجيهاً صائباً، بينما الأم تقوم على البذخ عليه ومنحه كلّ ما يريد، ومساعدته على تمضية وقته بلا هدف ولا فائدة، وهكذا مضت الأيام حتّى كبر الابن على هذا الحال وهو معتاد على حالة الراحة

(١) المائدة: ٣٣

(٢) الأعراف: ٥٦

والاتكاليّة المفرطة، إلى أن أتى وقت الحاجة للعمل فطلب منه والده أن يجد لنفسه عملاً يكتسب منه رزقه، ويُؤمّن به معيشته، فكان جواب الابن بالرفض! مبيّناً لأبيه: لا يمكن لي أن أعمل فلا قدرة لي على ذلك، ولا حرفة لي ولا صنعة.

أمّا الأب فقد أصرّ على ابنه وقال له: سأرسلك إلى المدينة ولن أسمح لك بالعودة إلّا وبيدك دينار من ذهب تجنيه من كدّ يمينك.

كان الأمر صعباً بالنسبة إلى هذا الولد الذي عاش حياته مرفّهاً مدلّلاً، ولم ترغب أمّه يوماً بأن يتعب ولو قليلاً، سمعت الأم كلام الأب وطلبه العجيب! فنادت ولدها وقالت له: يوم غد سأعطيك أنا الدينار الذهبي وضعه في جيبك وابقَ في المدينة لآخر النهار ثمّ عد وأعطي أباك مايريد.

في صباح اليوم التالي ذهب الابن إلى المدينة، وبقي هناك حتّى انتهى النهار وعاد وقدّم لوالده ذلك الدينار الذهبي، لم يندهش الأب فهو يعلم بأنّ ماطلبه كان أمراً صعباً جداً ولا يمكن للابن تحقيقه ولا بدّ أنّه قد حصل على مساعدة من أمه في الحصول على هذا المبلغ، أخذ الأب الدينار وقال: ليس هذا هو الدينار الذي أريد ورماه في موقد النار، لم يتأثر الابن بهذا الصنيع من الأب، ثمّ قال الأب: أريد منك أن تعود في

اليـوم التـالي مجـدّداً وتحـضر لي دينـاراً مـن الذهـب، كانـت الأم تراقـب الحـوار الـذي يـدور بينهـما، عندمـا خـرج الابـن توجّهـت إليـه الأم بالقـول: لا تقلـق سـأعطيك دينـاراً آخـر، ولكـن في هـذه المـرة أريـد منـك البقـاء لمـدّة يـوم أو يومـين أو ثلاثـة ثـمّ عـد حتـى يشـعر أبـوك بأنّـك كنـت تعمـل حقـاً.

وهـذا ماجـرى فعـلاً فقـد قـام الولـد بـما أملتـه عليـه أمّـه، وعـاد بعـد ثلاثـة أيـام مصطحبـاً معـه الدينـار وقدّمـه لأبيـه، ولكـن مـا كان مـن الأب إلّا أن أخـذ المـال ورمـاه في الموقـد مـن جديـد وقـال: ليـس هـذا هـو الدينـار الـذي أريـده، هنـا شـعر الابـن بتأنيـب الضمـير وعلـم بـأنّ مايقـوم بـه هـو مجـرد خـداع، لذلـك ففـي اليـوم التـالي اسـتيقظ مبكـراً قبـل أن تسـتيقظ أمـه وذهـب ليجـد لـه عمـلاً، وغـاب شـهراً كامـلاً وهـو يعمـل بجـدّ واجتهـاد حتـى حصـل عـلى ذلـك الدينـار، وعـاد إلى منزلـه وهـو تعـب ومرهـق وممسـك بالقطعـة النقديـة الثمينـة بعـد جهـد جهيـد، وقدّمهـا لأبيـه كالمعتـاد، وهنـا أراد الأب أن يرمـي تلـك القطعـة في النـار، فـصرخ الابـن قائـلاً: لا أرجـوك.. لا ترميهـا فقـد عانيـت كثـيراً للحصـول عليهـا، فهـي ثمـرة شـهر كامـل مـن العمـل المتواصـل، عنـد ذلـك قـال لـه الأب: أنـت حقّـاً تسـتحق هـذا المـال لأنّـه خلاصـة تعبـك وثمـرة جهـدك، وقـد أصبحـت الآن مسـؤولاً.

إنّ الإسراف في الدلال وسوء التربية يؤدّي إلى عدم اكتراث الإنسان بالعمل وبأهميّته، ويخلق إنساناً لا يحمل أيّ ذرة من الإحساس بالمسؤولية، وهذا ما يؤدي إلى تراجع المجتمعات وانهيارها، على عكس المجتمعات التي تهتم في تربية أبناءها فتصنع منهم رجالاً يتحمّلون مسؤولياتهم تجاه ربّهم و مجتمعاتهم.

إنّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام تحثّ على العمل و الاجتهاد في طلب الرزق، والتوجه للعمل الصالح، فقيمة كلّ امرئ مايحسنه، وحينما سُئل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: أيُّ كسب الرجل أطيب قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**عمل الرجل بيده**»[1]، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله**»[2]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من قتل دون ماله فهو بمنزلة الشهيد**»[3].

وهكذا فإن المطلوب اليوم هو الاهتمام بالجانب التربوي لصناعة جيل واعي يتحمل المسؤولية كي نبني مجتمعاتنا، كما أنّه لا يصحّ أن يعيش شبابنا الفراغ سواء العملي أو الفكري، يجب علينا الكدّ والكدح ومزاولة الأعمال حتّى لو جار علينا الزمان، ونبتعد عن جريمة الفراغ فالفراغ يولد المفاسد

(١) مستدرك الوسائل - ج١٣ - ص: ٢٤

(٢) الكافي - ج٥ - ص: ٨٨

(٣) الكافي - ج ٥ - ص: ٥٢

ويهدم الشخصيّة، ويقتل الروح الإيمانية؛ عندما يعتمد الإنسان على نفسه وشخصيّته، فإنّه سيشعر بالثقة في هذه النفس وهذه الشخصيّة، أمّا إن اعتمد على الأجواء المحيطة به وعلى البيئة التي يعيش فيها، وامتنع عن العمل والقيام بأيّ نشاط، فإنه قد أعلن الموت البطيء على نفسه وإن لم يشعر بذلك حقيقة، وهذا الأمر هو مما يتسبب في إبادة المجتمعات روحيّاً، لذا حتى في أوقات الفراغ يجب على الإنسان أن يعمل ويجد له عملاً ويبحث عما يشغل به نفسه حتّى لا تتساوى أيامه، يقول أبي عبد الله عليه السلام: «**من استوى يوماه فهو مغبون**»[1].

إن اللّه يحب العاملين

لقد بنى السويسريون بعدد قليل من العمال أطول نفق في العالم، ويسمى هذا النفق «جوتار» ويبلغ طوله ٥٧ كيلومتراً، استغرق حفره ١٤ عاماً، ويقع على عمق ٢٠٠٠ متر تحت الأرض، التكلفة الإجمالية لهذا المشروع بلغت ١٠,٣ مليارات دولار أميركي، وسيمر عبره ٣٠٠ قطار يومياً بسرعة ٢٥٠ كيلومتراً في الساعة، بعدد قليل حصل إنجاز كبير، ويعود السبب في ذلك إلى تقدير سويسرا للعقل البشري و اليد العاملة، فهناك تقدير واسع للعمل والعمال، وهذا التقدير

(١) وسائل الشيعة ج١٦ ص: ٩٤

يشـجّع العامـل عـلى العمـل والبـذل.

وهـذا مـا نجـده في ديننـا الإسـلامي فهـو بالإضافـة إلى حديثه عـن أهميـة العمـل ومكانـة العمـل أيضـاً يؤكّـد عـلى قيمـة العامـل ومكانـة العامـل، فلقـد قـدَّر الإسـلام العامـل ومنحـه مـن الرعايـة والعنايـة مـا كفـل لـه بذلـك حقوقـه، ورغَّبـه عـلى أداء واجباتـه، ووضـع الحـق إزاء الواجـب؛ فكفـل الإسـلام للعامـل حقّـه في التعليـم والحريـة والعبـادة، وكفـل لـه كرامتـه الإنسـانيّة، وجعلـه هـو وصاحـب العمـل سـواء، يـؤدي كلّ منهـما حـقّ الآخـر، وأيضاً اهتـم الإسـلام بأجـر العامـل، وبـأن يقـدَّم لـه قيمـة عملـه قبـل أن يجـفّ عرقـه، يقـول النبـي صلى الله عليه وآله وسلم: «**اعـط الأجـير أجـره قبـل أن يجـفّ عرقـه**»[1]، وعـن أبي عبـد الله عليه السلام حـول الحمّـال والأجـير قـال: «**لا يجـفّ عرقـه حتّـى تعطيـه أجرتـه**»[2]، ومـما يحـذّر منـه الإسـلام هـو منـع الأجـير حقّـه بعـد فراغـه مـن عملـه، فعـن الإمـام الصـادق عليه السلام: «**أقـذر الذنـوب ثلاثـة: قتـل البهيمـة، وحبـس مهـر المـرأة، ومنـع الأجيـر أجـره**»[3]، فحقـوق العامـل مصونـة في الشريعـة الإسـلاميّة، ويجـب عـلى صاحـب العمـل أن يحـترم عاملـه ويحسـن إليـه، يقـول الإمـام عـلي عليه السلام في رسـالته

(١) جامع أحاديث الشيعة - ج ١٩ - ص ١٧

(٢) وسائل الشيعة - ج١٩ - ص: ١٠٦

(٣) وسائل الشيعة - ج١١ - ص: ٥٤٤

لمالك الأشتر: «**ثمّ اعرف لكلّ امرئ منهم ما أبلى، ولا تضيفن بلاء امرئ إلى غيره، ولاتقصرن به دون غاية بلائه، ولايدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً**»[1].

فلولا النجّار والبحّار والفرّاش والطبّاخ والخبّاز والفلّاح كيف يمكن أن تدوم الحياة؟. كيف يمكن لهذا المجتمع أن يعيش؟. وكذلك لولا الموظف والمدير والمسؤول والمهندس والطبيب ولولا كلّ تلك الوظائف لا يمكن لعجلة الحياة أن تدور، من هنا اهتمت الدول المتقدّمة بالعمال بشكل كبير، لعلمها بأن ازدهار البلاد مرتبط بشكل أساسي براحة الموظف وقبوله للعمل، وإبداعه في المجال الذي يعمل فيه، فترى العامل هناك يخلص في مجال عمله، كما ذكرنا في النفق السويسري فبعدد قليل تمّ حفر أطول نفق في العالم، ترى هل تنقصنا الإمكانيات لذلك؟.

إنّ احترام العامل وتقديره طريق لكي يقدِّم هذا الإنسان أفضل مالديه، فيبني المباني، ويعمر المؤسسات، ويمهد الأرضيّة لنهضة عملاقة، فلكلّ فعل ردّة فعل، هذا ما أدركه السويسريّون فقاموا بحملة ضد الفقر، وجعلوا سقفاً للرواتب

(١) المستدرك -ج١٣- ص: ١٤٩

فالأعزب الذي راتبه أقل من ٢٠٠٠ دولار، والعائلة المكوّنة من أربعة أفراد وراتبها أقلّ من ٤٠٠٠ دولار يُعتبرون فقراء ويجب إعالتهم، فقامت المظاهرات والندوات والاجتماعات نصرة لهذا العامل وعائلته، وأشعلوا مليون شمعة لكي تكون بارقة أمل نحو تطلع جديد يخدم مصلحة العمّال في البلاد.

لم يكن مجرّد تكريم عادي، فقد شعر العمّال بقيمتهم، وبشخصيّتهم، وبمكانتهم، لذا عندما يتقاعد المدرّس فإنّه لا يتّخذ من منزله كهفاً بل يبدأ التفكير عن الطرق والسبل التي يمكن له من خلالها دعم هذا المجتمع والإصلاح فيه، وسدّ ثغرة هنا أو هناك، يتحمّل هو مسؤوليتها، لا أن يتّخذ من الذرائع وهماً يلقيه ليمنع عن نفسه العمل، بقوله ٣٤ أو ٤٠ سنة كنت عاملاً وآن الأوان كي أتقاعد، يجب علينا أن نقتدي بأئمتنا عليهم السلام، أن نكون مثالاً يحتذى به في هذا المجتمع، فهذا التراث العظيم الذي تربّينا عليه يكلّفنا ويحمّلنا مالا يحمَّله لغيرنا علينا أن نعمل ولا نستنكف، وهذه مسؤولية الجميع، الدولة والمتخصصون من العلماء والحسينيات والهيئات ومراكز الدراسات، والجمعيات، علينا جميعاً أن نبحث عن الحلول، كيف نرتقي بالعمل والعمّال؟.

مع الأسف في دولنا يسمع الناس فقط عن حقوق العمّال، واتحادات العمّال، ويوم العمّال، وغير ذلك وفي الحقيقة

ما هذه إلّا دعايات فارغة تحاول الحكومات الظالمة أن تستغلّها لتلميع صورتها بينما العامل لا يعود عليه ذلك بالنفع أو الفائدة أصلاً، حينما يشعر العامل بالفعل أنّه مُنصَف، ذلك اليوم هو يوم عيد له، عندما يشعر العامل بأنّه مقدَّر ذلك اليوم يأخذ حقّه، وهذا مانعانيه في واقعنا وبيئتنا، لو سألت الناس عن وجعهم لقالوا: نشعر بالغبن، وبعدم الإنصاف.

اليوم نحن بحاجة إلى مراجعة أنفسنا، إلى احترام العمل وتقدير العامل والبحث عن أفضل الأعمال، والسعي لتقدير العمّال والتشجيع على العمل.

كربلاء مدرسة العمل الصالح

في ليلة العاشر من شهر محرم الحرام، تلك الليلة العصيبة التي مرّت على أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة، كيف قضاها الإمام وأصحابه عليهم السلام؟ لقد قضى الإمام وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام تلك الليلة بالصلاة والدعاء وقراءة القرآن، وكان لهم دويّ كدوي النحل، وحركة واستعداد للقاء الله سبحانه، يصلحون سيوفهم ورماحهم، فباتوا تلك اللّيلة ضيوفاً في أحضان كربلاء، ولكن على الرغم من أنّ الضيف عادة لا يعمل إلّا أنّهم انشغلوا بالعمل، وشغلوا أنفسهم كلٌّ بحسب شأنه ووظيفته.

إنّ الشخصيّات الكربلائيّة شخصيّات إلهيّة عظيمة القدر والمنزلة والشأن، وتعلم أنّ السبيل الوحيد للوصول إلى حقيقة الإيمان هو بالعمل الصالح فلم يضيّعوا أوقاتهم حتّى اللحظات الأخيرة من حياتهم المباركة.

وهكذا هو علي الأكبر عليه السلام الذي لم يتهرب من الجهاد بحجّة أنّه ابن القائد أو أن الناس يجب أن تخدمه، بل على العكس فقد تقدّم في الميدان وسطّر للأجيال دروساً عظيمة في الجهاد و العمل الصالح.

شخصيّة عظيمة كشخصيّة علي الأكبر جمعت في صفاتها الجمال والكمال، وهو أشبه الناس بجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنطق والخَلق والخُلق، هذه الشخصيّة انطلقت من الوعي والتربية الحسينيّة لتُظهر للعالم أنّ ابن القائد لا يتقاعس أو يتخاذل بل هو في مقدّمة الركب والجهاد.

فما أحوجنا اليوم أن نتعلم من هذه الشخصيّة العظيمة دروس التسابق إلى الصالحات، يقول ربّنا عزّوجلّ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1].

(١) الحديد: آية ٢١

الإلتزام

بين التظاهر و الحقيقة

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1]

بين الزيف والواقع

هنالك بون شاسع بين الادّعاء والحقيقة، وبين التظاهر والواقع، يمكن للمرء أن يتظاهر بأمر ما ولكنه يعرف في قرارة نفسه ما إذا كان هذا الأمر حقيقيّاً أم مجرد تظاهر خارجي أو ادّعاء لفظي، هناك مجموعة كبيرة من الادّعاءات التي يمكن لأيّ شخص أن يدّعيها، كأنّ يدّعي إنسان أنّه على حق ويعمل بالحق، أو أن ينسب إلى نفسه صفات معينة، أو أن يتظاهر بتلك الصفات أمام مرأى ومسمع الناس، والسؤال هنا إلى متى يمكن للإنسان الحفاظ على ادّعائه؟

لا بدّ أن يأتي ذلك اليوم الذي تتكشف فيه الحقائق وتظهر فيه الوقائع، ولعلّ الله سبحانه وتعالى يمهل هذا المدّعي ليوم

(١) الأنعام: الآية ١٦٢

الآخرة ليُظهر ما أضمره ويكشف ما أخفاه، ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، فالإنكار لا يفيدهم بشيء مهما حاولوا أن يخفوا واقعهم وحقيقتهم.

دخل عبد الله بن عباس على معاوية ليزوره وهو على فراش الموت، فقالوا لمعاوية: إنّ عبدالله بن عباس بالباب، وقد أتى ليزورك! فقال معاوية: قوّموني - وقد كان ممتداً على ظهره -، فقالوا له: إنّك مريض ولا حاجة لجلوسك، إلّا أنّ معاوية كان يريد أن يظهر قوّته وجبروته عبر التظاهر بالقوّة وعدم المرض، فرد عليهم مستشهداً بقول الشاعر أبي ذؤيب الهذلي:

وَتَجَلُّدي لِلشامِتينَ أُريهِمُ

أَنّي لَرَيبِ الدَهرِ لا أَتَضَعضَعُ

وكان عبد الله بن عباس على الباب وسمعه فرد عليه ببيت آخر من نفس القصيدة:

وَإِذا المَنِيَّةُ أَنشَبَت أَظفارَها

أَلفَيتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنفَعُ

أي أنّ الإنسان إذا نزل به الموت لا ينفعه كبره ولا جبروته

(١) العنكبوت: الآية ٨

ولا عناده ولا تظاهره بالقوّة والعزم، فالموت من مظاهر عظمة الله سبحانه وتعالى: « **فيا من توحّد بالعز والبقاء، وقهر عباده بالموت والفناء**»[1].

بين المظاهر الدنيوية والحقائق

هنالك مساحة واضحة بين الادّعاء والتظاهر، وبين الحقيقة والواقع، ولكن البعض يسقط في فخ الادّعاءات والتظاهر، فتغريه الدنيا ويظن نفسه مخلداً فيها، فيعيش الوهم و الادّعاء متناسياً الحقيقة، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا أقبلت دنيا قوم كُسوا محاسِن غيرهم، وإذا أدبرت سُلبوا محاسن أنفسهم**»[2].

إنّ المظاهر تخدع الناس، وغالباً ما ينساق الناس وراء زيف الصفات وينسون الحقائق، حينما تقبل الدنيا -مثلاً- على شخص ما ترى أن المجتمع يشير إليه بصفات ليست فيه، ويرفعونه ويحترمونه، ويطلقون عليه القاباً مثل: صاحب الحكمة أو مفكر العصر، وغير ذلك لا لأنه حقّاً كذلك، وإنّما لمجرد أنّ الدنيا ظلّلته بظلالها المؤقتة فيتهافتون عليه، ولكن عندما تدبر عنه الدنيا لن تجد له من شافعين ولا صديق

(١) دعاء الصباح

(٢) بحار الأنوار - ج٧٥ - ص: ٢٦٩

حميم، سيتبرّأ منه الجميع ويتخلّى عنه الأخِلّاء والأصدقاء والأقرباء، وهذا الوصف من الإمام الصادق عليه السلام جميل جداً: « **إذا أقبلت دنيا قوم كُسوا محاسن غيرهم**»، إن وصفهم بما ليس فيهم هو ظلم كبير بحقهم، وبحق المجتمع، وإلباسهم عباءات لا تليق بهم إجحاف بشأنهم، وذلك لأنهم سيعيشون حالة من التظاهر بما ليسوا هم أهل له، وما يدعم هذه الآفة مجارات الناس لهؤلاء وتصديقهم.

ومما يزيد هذه المشكلة هو انتشار حالة الرياء، وهو إظهار وإبراز شيء من الأعمال الصالحة أو الصفات الحميدة أو العقائد الحقّة للناس لأجل الحصول على منزلة في قلوبهم والاشتهار بينهم بالصلاح والاستقامة والتديّن، من دون أن تكون هذه الصفات في الشخص حقيقة، ولا تكون لديه نيّة خالصة، عن الإمام الصادق عليه السلام: « **قال النبيّ** صلى الله عليه وآله وسلم: **إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا صعد بحسناته يقول الله عزّوجلّ: اجعلوها في سجّين، إنّه ليس إيّاي أراد بها**»[1].

وبالمقابل نرى أن من يجعل أعماله دائماً خالصة لله عزّوجلّ، ويطبق الآية القرآنية الشريفة: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[2]، ويربط نفسه وحياته وروحه

(١) الكافي - ج٢ - ص٢٩٤.

(٢) الأنعام: الآية ١٦٢

وعمله وأداءه بالله عزّوجلّ، هذا الارتباط سيحصّن عمله ويجعله مستمراً باقياً، ولا يمكن للشيطان أن يتسلط عليه، فسواءٌ أقبلت الدنيا أم أدبرت يبقى المرء على ماهو عليه من الورع والتقوى.

فما كان خالصاً لله عزّوجلّ، سينميه الله ويظهره وإن أخفاه العبد، كالمتواضع عندما لا يتفاخر على الآخرين ولا يشعر بأن له ميزة تجعله يتعالى عليهم أو ينظر لهم نظرة دونية، فإنّ الله عزّوجلّ سيرفعه «**من تواضع لله رفعه**»[1] كما يقول الإمام الصادق عليه السلام، فيرفع منزلته ومكانته وقدره، فيُدخل حبّه في قلوب الناس ولو اجتمعت الدنيا حتّى تحطّ من قدر هذا الإنسان ما استطاعوا.

في عام ٦١ للهجرة تكالب الناس على رجل واحد وهو الإمام الحسين بن علي عليه السلام، الدولة مع السلطة مع الناس مع المجتمع اجتمعوا على قتله ومحاربته، وقاموا بأبشع الجرائم بحقه سلام الله عليه وبحق أهل بيته، ونادوا على نسائه وبناته بالخوارج، واتّهموه بالخروج عن دين جدّه، ولكن انظر إلى عظمة الحسين عليه السلام منذ شهادته وإلى اليوم، أين الحسين بن علي عليه السلام؟ وأين قاتليه وظالميه؟

(١) الكافي - ج٢- ص: ١٢٢

يزيد بن معاوية هو مثال جليٌّ لانخداع الناس بالمظاهر وغفلتهم عن الحقائق، فإلى اليوم -مع الأسف- نرى من لايزال منخدعاً بهذا الطاغية، ومنذ ذلك الزمن وإلى اليوم والدعايات الأموية لتلميع صورته مستمرة، وما كانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام إلا لكشف هذا التزييف و التضليل.

إنّ ما فعله يزيد أنصع من أن يخفيه شيء، ولكن الناس كثيراً ما ينخدعون ببريق الصولجان ورهبة الملك، فهذا الجاحظ يقول عن جرائم يزيد: « المنكرات التي اقترفها يزيد من قتل الحسين وحمله بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبايا، وقرعه ثنايا الحسين بالعود، وإخافته أهل المدينة، وهدم الكعبة، تدل على القسوة والغلظة، والنصب، وسوء الرأي، والحقد والبغضاء والنفاق والخروج عن الإيمان، فالفاسق ملعون، ومن نهى عن شتم الملعون فملعون»[1]، وهذا ابن الجوزي يقول: « ما رأيكم في رجل حكم ثلاث سنين: قتل في الأولى الحسين بن علي، وفي الثانية أرعب المدينة وأباحها لجيشه، وفي السنة الثالثة ضرب بيت الله بالمنجنيق»[2].

(١) الجاحظ في الرسالة الحادية عشر في بني أمية ص ٣٩٨

(٢) تذكره الخواص لابن الجوزي ص ١٦٤

إصلاح أم إفساد؟

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[1]

كثيراً ما تختلط الأمور على الناس، ويقلب الطغاة الحقائق فيصبح المصلح مفسداً والمفسد مصلحاً، ويُتّهم الرساليّون العاملون بأنهم مخرّبون ومفسدون، بينما يوصف الظلمة بأنّهم أهل العدل، ولكي نواجه ذلك لابدّ لنا أن نعلم:

- لا يصبح الإفساد إصلاحاً لمجرد الادّعاء؛ فالمنافقون كانوا يدّعون أن ممارسة النفاق نوع من الإصلاح، (لأنّهم لم يخالفوا الرسالة ظاهراً، ولم يعارضوا الكفار علناً) كلا، إنّ مداهنة الكفار إفساد بذاتها، لأنّ الكفر هو الإفساد بعينه، كما أنّ التخلّف عن الإيمان بالرسالة نوع من الإفساد، لأن جوهر الرسالة هو الإصلاح.

فاذاً علينا أن نميّز بين الإصلاح والإفساد بالموازين العقليّة، وليس كلّ مداهنة ومناورة إصلاح. بلى إذا دارى أحد غيره بهدف تحقيق الأهداف السامية كان ذلك إصلاحاً؛ مثلاً إذا كذب أحد من أجل اكتساب شعبيّة أو الحصول على ثروة، فإنّه نفاق وإفساد. أمّا إذا

(١) البقرة: الآية ١١ – ١٢

كـذب مـن أجـل إصـلاح ذات البـين، أو مـن أجـل إقامـة العـدل فإنّـه ليـس بكـذب.

وهكـذا المعيـار هـو محتـوى العمـل وهدفـه، وليـس مجـرد مظهـره.

- التجـبّر في الأرض ليـس دليـلًا عـلى الإصـلاح؛ إنّـما بالتواضـع وتقديـم مصالـح الأمّـة عـلى الأهـواء الشـخصيّة يتبـيّن إصـلاح الفـرد. وقـد قـال الله سـبحانه لرسـوله: ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[1].

وهكـذا ينبغـي أن يكـون المصلـح في منتهـى التواضـع، وقـد جـاء في الحديـث الشريـف: «**تواضعـوا لمـن تعلّمونـه العلـم، وتواضعـوا لمـن طلبتـم منـه العلـم، ولا تكونـوا علـماء جباريـن فيذهـب باطلكـم بحقّكـم**»[2].

- ومـن معايـير الإصـلاح معرفـة سـبيل المفسـدين وتجنّبـه. والمفسـدون هـم الذيـن يفرقـون بـين النـاس، وعـلى القيـادات ألّا تتّبعهـم، ولا خـير في كثـير مـن نجواهـم إلّا مـن أمـر بإصـلاح أو صدقـة أو معـروف.

(١) ق: الآية ٤٥

(٢) بحار الانوار- ج ٢- ص ٤١

- لكي نعرف المصلح من المفسد، علينا أن ندرس عمله. فمن دعا إلى معروف وسبق الناس إليه، ونهى عن المنكر وتجنّب عنه قبل الآخرين.. كان عمله دليل صدقه.

ولكن من دعا إلى التواضع ثمّ تكبر، أو إلى الوحدة ثمّ تعصب، أو إلى الزهد ثمّ رغب في الدنيا.. فإنّ علينا أن نشك في صدقه. وهكذا نجد النبي هود عليه السلام يذكّر قومه، أنّه لا يريد أن يخالف قومه فيما يدعوهم إليه، قائلًا: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾[1].

وقد جاء في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تجلسوا عند كلّ داع مدّع يدعوكم من اليقين إلى الشك، ومن الإخلاص إلى الرياء، ومن التواضع إلى الكبر، ومن النصيحة إلى العداوة، ومن الزهد إلى الرغبة. وتقرّبوا إلى عالم يدعوكم من الكبر إلى التواضع، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الشك إلى اليقين، ومن الرغبة إلى**

(١) هود: الآية ٨٨

الزهـد، ومـن العـداوة إلى النصيحـة. ولا يصلـح لموعظـة الخلـق إلّا مـن خـاف هـذه الآفـات بصدقـه، وأشرف عـلى عيـوب الـكلام، وعـرف الصحيـح مـن السـقيم، وعلـل الخواطـر وفتـن النفـس والهـوى»[1].

كيف نواجه الزيف؟

«كيـف نحـارب النفـاق والتلـوّن؟ وكيـف نقـول بـما نعمـل ونعمـل بـما نقـول ونتجـاوز بالتـالي المسـافة بـين الادّعـاء والواقـع؟

الجـواب: بـالإرادة القويـة، ولكـن كيـف نقـوي الإرادة؟ إنّ الإرادة بحاجـة إلى تدريـب حتـى تقـوى، فهـي كأيّ شيء في الإنسـان تنمـو كلّـما اسـتثمرها الإنسـان أكثـر فأكثـر. العضـلات تشـتد بالرياضـة والأعصـاب تقـوى بمواجهـة المشـاكل، والفكـر ينمـو باسـتخدامه، وهكـذا الإرادة تنمـو كلّـما اسـتفاد الإنسـان منهـا، جـرّب ذلـك وصمـم عـلى القيـام بعمـل صعـب، إنـك سـوف تجـد صعوبـة في ممارسـته أول مـرة، ولكـن كلّـما قمـت بـه أو قمـت بأمثالـه قلَّـت صعوبتـه.

والصـلاة أفضـل اسـتثمار لـلإرادة وبالتـالي أفضـل وسـيلة لتنميتهـا أنّـك حـين تصـلي لله تقـاوم الذاتيّـة في نفسـك وتحـارب

(١) بحار الأنوار- ج ٢ - ص ٥٢.

طبيعة التقوقع داخل زنزانة المصالح، وبتعبير أوجز: تحارب الشيطان بكل جنوده.

وحين الصلاة تهجم عليك وساوس الشيطان لتبعدك عن الاتصال بالله فتراك تركز نظرك في الله والشيطان يصرفك إلى أيّ شيء آخر غير الله. إلى الدراسة، إلى التجارة، إلى مشاكل البيت و.. و.. ولا تزال في حالة حرب حتى تنتهي الصلاة، ولهذا سُمِّي محل إقامة الصلاة (محرابا) لأنه فعلا موقع حرب.

وهكذا تكون الصلاة تجربة للإرادة وممارسة لها، بالإضافة إلى أنّها تقرّبك إلى الله ربّ كلّ شيء مما يُشيع في نفسك الثقة لمقاومة أسباب الضعف في الخوف والرغبة.

وكذلك الصبر ومن مظاهره العمليّة الصيام، وهو الآخر تجربة للإرادة؛ فهو يدع الإنسان يتطلع للمستقبل ولا يفكر في حاضره فقط، والصبر بما يمثل من تطلع إلى المستقبل بما فيه من ثقة بالله.

قوتان هائلتان يجب الاستعانة بهما ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[1]، لمقاومة ضعفنا الداخلي، ولكن الاستعانة بالصبر والصلاة، صعبة هي الأخرى فكيف نصبر وكيف نصلي؟

(١) البقرة: الآية ٤٥

الجواب: علينا أن نخشع ونذلّل غرور أنفسنا وكبرياءَها الكاذب، بالتفكّر الدائم في الآخرة حيث نتصور أنفسنا وقوفاً أمام الله في المحكمة الكبرى، حيث ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]. إنّ الخشوع يدفعنا إلى الصبر والصلاة، لذلك قال الله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[2]»[3].

لغة الحقيقة

إذن بين الادّعاء والحقيقة مساحة كبيرة، ونحن في ليلة العاشر من محرم الحرام، وفي أيام عاشوراء بحاجة إلى أن نتحرّى في أنفسنا الصدق لا مجرد الادّعاء، لا بدّ أن تكون صلاتنا ومناسكنا وحياتنا ومماتنا لله عزّوجلّ، فالجميع مسؤول عن هذا الأمر، ولكي نرتقي إلى هذا الحال وإلى هذا المستوى، علينا التأسي بما يقوله أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه**»[4]، وحتّى نستطيع أن نكون كذلك ينبغي أن نفهم لغة كربلاء، إنّ لكربلاء لغة خاصة لغة ليست كاللّغات المتداولة بين الناس، هي لغة دينيّة ربانيّة

(١) الشعراء: الآية ٨٨- ٨٩

(٢) البقرة: الآية ٤٥

(٣) من هدى القرآن- المرجع السيد محمد تقي المدرسي - ج١- ص: ١٨٠

(٤) تفسير مواهب الواهب ٢: ٣٦

بحاجة إلى أن نفهمها، وطريق الوصول إلى فهمها يمرّ عبر الحسينيين الذين ذابوا في الحسين عليه السلام حق الذوبان، ووصلوا إلى درجة العشق الحسيني، كعابس بن شبيب: فقد بلغ عابس من عشق الإمام الحسين عليه السلام مبلغاً قلّ مثيله. ورد أنّه لما خلع درعه في كربلاء بعد أن هاب قتاله معسكر الأعداء قيل له: أجننت يا عابس؟ فقال قولته المشهورة:

«أجل حبُّ الحسين أجنني».

أيضاً في ليلة العاشر من محرم تلك الليلة الأخيرة من حياة الأصحاب، وهم على يقين وعلم بما سيجري عليهم بعد ساعات، « كان حبيب بن مظاهر، وهو من ألمع أنصار الحسين، قد خرج إلى أصحابه وهو يضحك، فأنكر عليه بعض رفاقه وقال له: يا حبيب، ما هذه ساعة ضحك، فأجابه حبيب بإيمانه العميق قائلاً: أيّ موضع أحقّ من هذا بالسرور، والله ما هو إلّا أن تميل علينا هذه الطغاة بسيوفهم فنعانق الحور العين» [1].

إذن من يرتبط بالحسين عليه السلام يرتبط بالجنّة مباشرة، يرى الطريق ويرى الحور العين ويرى مكانته ومقامه، ولن تكون هناك ادّعاءات بعيدة عن الحقيقة، فينتج عن ذلك لغة جديدة

(١) رجال الكشي: ٥٣

مختلفة لا يفهما إلّا عشاق الحسين عليه السلام الذين توّجوا عشقهم بالشهادة بين يدي ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما أسنى أن يُقتل المرء في حبّ الحسين وفي سبيل الحسين؛ فسبيل الحسين سبيل الله، والحسين هو طريق الله، وكما قال المرحوم الشيخ حسن الدمستاني البحراني المتوفى سنة ١٢٨١ هـ:

بأبي أفدي نفوساً قُتِلُوا دونَ الحسين
ليتني بينهمُ كنْتُ قطيعَ الودَجَين
بِأَبي أَنجمُ سَعْد في هُبوطٍ وصُعُودْ
طَلَعَتْ في فَلَكِ المَجْدِ وغابَتْ في اللُحودْ
سَعُدَتْ بالذَبح والذابِحُ عَن بَعْضِ السُعودْ
كيفَ لا تسعد في حالِ اقترانٍ بالحُسينْ
بأبي أقمارُ تَمٍّ خُسِفَتْ بين الصِّفاح
وشموسٌ مِن رُؤس في بُروج مِن رِماح
ونُفوسٌ مُنِعَتْ أن تَرِدَ الماءَ المُباح
جُرِّعَتْ كأسَ أوام وحِمام قاتِلَيْنْ
فَمِنَ الفَرْضِ علينا لُبسُ سِربالِ الأَسى
واتِّخاذِ النَّوحِ دَأباً كُلَّ صُبْح ومَسَا

واشـــتعال القلـــب أحزانـــاً تُذيـــب الأنْفســـا

وقَليـــلٌ تُتلـــفُ الأرواحُ في رُزْءِ الحُســـينْ

عندمـــا نســـمع كلام رســـول الله ﷺ: «**حســـين منـــي وأنـــا منـــه أحـــبّ الله مـــن أحـــبّ حســـينا**»[1]، ونـــفـــهـــم هـــذه اللغـــة مـــن رســـول الله ﷺ، والتـــي فهمهـــا أنصـــار الحســـين عليه السلام في كربـــلاء، فانصهـــروا جميعـــاً في حـــب الحســـين، لأن الحســـين لغـــة الدنيـــا والآخـــرة.

العناوين العاشورائية

تجمّعـــت كلّ العناويـــن الصالحـــة في هـــذا الشـــهر الحســـيني، وارتســـمت عـــلى أرض كربـــلاء لتشـــكّل لوحـــة عاشـــوراء، فاحتضنـــت الغاضريّـــات المحبـــة والطفولـــة البريئـــة والســـلام والإيثـــار والعطـــاء والتضحيـــة والجـــود والكـــرم والشـــجاعة والبطولـــة وعظمـــة المـــرأة، احتضنـــت الشـــباب والشـــيوخ، وكلّ قيـــم الخـــير تجمعـــت وكلّ العطـــاءات شـــعّت في ســـنا كربـــلاء، وفي نفـــس الوقـــت أيضـــاً تجمّـــع كلّ الـــشر وكلّ الحقـــد في المعســـكر الآخـــر، كلّ مـــا هـــو خـــارج عـــن دائـــرة الإنســـانيّة في قبـــال الإنســـانيّة هنـــاك حيـــث تجمّـــع الظلـــم والإيـــذاء والوحشـــيّة والنهـــب والســـلب

(١) بحار الأنوار - ج٣٧ - ص: ٧٤

والتجاوز والعدوان على كلّ شيء، في كربلاء كان هناك معسكر يجسّد الخير المطلق ومعسكر آخر يجسّد الشر والباطل المطلق.

في كربلاء كانت الحقيقة التي لازيف فيها، ونحن إذا أردنا أن نحقّق هذه القيمة العالية علينا أن نفهم لغة الطف هذه اللّغة الخاصة التي تنبذ المصالح إذا تعارضت مع القيم والدين كما نبذها ورفضها الحسين عليه السلام، يقول القرآن: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

لو تدبّرنا قليلاً في مفهوم هذه الآية لوجدنا أنّنا لو أخضعنا أنفسنا لميزان الرقابة الإلهي والعطاء الرباني، لجعلنا الحبّ وحده لله عزّوجلّ، ولما أشركنا مع حبّه أحداً، أي أنّ حبنا لأولادنا وأزواجنا وآبائنا وعشائرنا وأموالنا وتجارتنا ومساكننا ينبغي أن يكون منطلقاً من حبّنا لله عزّوجلّ، وهناك فرق بين محبّة هذه الأشياء أو التمسّك بها بعيداً عن حبّ الله وبين حبها في الله، ويتجلّى ذلك عندما نقع في الشدائد وتتعارض مصالحنا الشخصية مع قيمنا الدينيّة، والإمام

(١) التوبة: الآية ٢٤

الحسين عليه السلام لا يريد منّا أن نتنازل عن أيٍّ من هذه الأمور ولكن يحذّرنا من التعلّق بها، وجعلها هي المحور والميزان، وفي هذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**كما أنّ الشمس والليل لا يجتمعان كذلك حبّ الله وحبّ الدنيا لا يجتمعان**»[1].

وقد يسأل سائل كيف إذن يمكن لنا أن نعيش في هذه الدنيا؟ فنقول: أن نحيا في هذه الدنيا شيء وأنا نتعلّق بها شيء آخر، أن نرفع اسم الحسين عليه السلام ادّعاءً وتظاهراً شيء وأن نحيي قيم الحسين عليه السلام ونطبّق مبادئه ونكون حسينيين حقّاً شيء آخر.

إنّ الحب هو العمل وهو الاتباع وهو الطاعة، كان فيما ناجى الله عزّوجلّ به موسى بن عمران عليه السلام أن قال له: «**يابن عمران كذب من زعم أنّه يحبّني فإذا جنّه الليل نام عنّي، أليس كلّ محبّ يحبّ خلوة حبيبه؟ ها أنا ذا يا بن عمران مطّلع على أحبائي إذا جنّهم الليل حوّلت أبصارهم في قلوبهم، ومثّلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلموني عن الحضور، يا بن عمران هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينيك الدموع في ظلم الليل، وادعني فإنّك تجدني قريباً مجيباً**»[2]، من يدّعي حبّ الله لا بدّ له من

(١) مستدرك الوسائل - ج١٢- ص: ٤٢

(٢) بحار الأنوار - ج ٨٤ - ص ١٣٩

العمل على أساس هذا الحب فيذكر الله صباح مساء، فهل يغفل المحب عن محبوبه؟! يقول إمامنا الصادق عليه السلام: «**ما عرف الله من عصاه**، وأنشد:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه

هذا لعمرك في الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته

ان المحب لمن أحب مطيع[1]

ليلة الحقيقة

في ليلة عاشوراء أرسل الإمام الحسين عليه السلام أخاه العباس عليه السلام ليطلب من القوم تأخير القتال لصباح العاشر من محرم بقوله: « **ارجع إليهم فإن استطعت أن تُؤخّرهم إلى غدوة، وتدفعهم عنّا العشيّة**»، ترى لماذا أراد الإمام هذه المهلة؟ ولأيّ شيء؟

الجواب عند الإمام عليه السلام حيث يكمل كلامه للعباس عن السبب وراء هذا الطلب: « **لعلّنا نصلّي لربّنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنّي قد كنت أحبُّ الصلاة له، وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والاستغفار**».

(١) بحار الأنوار - ج٧٥ - ص: ١٧٤

فقط حتّى يختلوا مع محبوبهم ويصلّوا ويقرأوا القرآن، هذا مما لابد من التذكير به دائماً و أبداً علينا أن نراجع أنفسنا وذواتنا هل تمضي علينا ليلة ونحن مشغولون عن الله عزّوجلّ، ونتذرّع بحجج من هنا أو هناك، طبول الحرب قرعت، وفي الحرب تُفصل الرؤوس وتقطَّع الأوصال، وتكسّرُ الرماح، وتثلم السيوف، ولكن الإمام عليه السلام يطلب فرصة للصلاة، لننظر كيف قضى الإمام وأصحابه عليهم السلام تلك الليلة؟ وكيف قضوا تلك الساعات؟

لم يناموا ولم يغفلوا عن ذكر الله بل كانوا مطمئنين بقضاء الله وقدره، باتوا ولهم دوي كدوي النحل، لم يرغمهم الإمام عليه السلام على شيء ليتظاهروا بالولاء والعبادة، إنّها تجلّيات الحقيقة في وجه الزيف.

في تلك الليلة ظهرت الحقائق في معسكر الحسين عليه السلام، واختفى الزيف، فلو أن أصحاب الإمام عليه السلام كانوا متظاهرين لهربوا في تلك الليلة ولم يبق منهم أحد، فقد حان وقت الجد والقتال، وقد أخبرهم الإمام بأنّهم مقتولون جميعاً، فلو كانوا أدعياء فيما يقولون - حاشاهم- لاتخذوا سواد الليل جملاً وهربوا، لكننا نرى عكس ذلك ففي تلك الليلة ظهرت المعادن الأصيلة.

مـن المواقـف التـي خلّدهـا التاريـخ في ليلـة العـاشر موقـف عـلي بـن مظاهـر وزوجتـه الأسـدية، فبعـد أن خطـب الإمـام الحسـين عليه السلام في أصحابـه قـال لهـم: «**ألا ومـن كان في رحلـه امـرأة فلينـصرف بهـا إلى بنـي أسـد**».

فقام علي بن مظاهر وقال: ولماذا يا سيدي؟!

فقـال عليه السلام: «**إنّ نسـائي تُسـبى بعـد قتـلي، وأخـاف عـلى نسـائكم مـن السـبي**».

فمـضى عـلي بـن مظاهـر إلى خيمتـه، فقامـت زوجتـه إجـلالاً لـه، فاسـتقبلته وتبسّـمت في وجهـه فقـال لهـا: دعينـي والتبسـم! فقالـت: يـا بـن مظاهـر! إني سـمعت غريـب فاطمـة خطـب فيكـم وسـمعت في آخرهـا همهمـة ودمدمـة فـما علمـت مـا يقـول؟

قـال: يـا هـذه! إنّ الحسـين عليه السلام قـال لنـا: **ألا ومـن كان في رحلـه امـرأة فليذهـب بهـا إلى بنـي عمّهـا لأنّي غـداً أُقتـل ونسـائي تسـبى!**

فقالت: وما أنت صانع؟

قال: قومي حتّى أُلحقك ببني عمّك بني أسد.

فقامـت ونطحـت رأسـها في عمـود الخيمـة، وقالت-وهـي المـرأة التـي فهمـت ووعـت لغـة كربـلاء-:

والله! ما أنصفتني يا بن مظاهر! أيسرّك أن تُسبى بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنا آمنة من السبي!؟

أيسرّك أن تُسلب زينب إزارها من رأسها، وأنا أستتر بإزاري!؟

أيسرّك أن تذهب من بنات الزهراء عليها السلام أقراطها، وأنا أتزين بقرطي!؟

أيسرّك أن يبيضّ وجهك عند رسول الله ويسودّ وجهي عند فاطمة الزهراء؟

والله! أنتم تواسون الرجال ونحن نواسي النساء.

فرجع علي بن مظاهر إلى الحسين عليه السلام وهو يبكي.

فقال له الحسين عليه السلام: **ما يبكيك؟**

فقال: سيدي! أبت الأسدية إلّا مواساتكم!

فبكى الحسين عليه السلام وقال: **جزيتم عنا خيراً**[1]

كما أن الإمام سلام الله عليه قال لأصحابه ليلة العاشر من المحرم: «**هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً ثمّ ليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثمّ تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتّى يفرج الله فإنّ القوم إنّما يطلبوني ولو قد**

(١) معالي السبطين ١: ٣٤٠.

أصابوني لهوا عن طلب غيري»[1]، وأكّد الإمام سلام الله عليه على مسألة خروجهم بالليل ليكون ذلك ساتراً لمن كان مدّعياً لا معتقداً، فهنا لا مكان للتظاهر ولا مكان للادّعاء، فالمتظاهر يصبر لحين أوان ساعة الفصل وعندها يظهر ما يبطنه، لهذا الإمام لم يخيرهم بل قال لهم: « **ألا وإنّي أظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإنّي قد رأيت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلٍّ ليس عليكم منّي ذمام**»[2].

هنا وقت الامتحان، فما كان من أصحابه إلّا أن قالوا على لسان مسلم بن عوسجة الأسدي: « أنحن نخلّي عنك ولما نعذر إلى الله في أداء حقك ؟ ! أما والله! حتّى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولا أفارقك ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك، حتّى أموت معك».

وقال سعد بن عبد الله الحنفي: «والله لا نخلّيك حتّى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك، والله لو علمت أنّي أُقتل، ثمّ أحيا، ثمّ أُحرق حيّاً، ثمّ أُذر، يُفعل ذلك بي سبعين مرة، ما فارقتك حتّى ألقي حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك ؟ وإنّما هي قتلة واحدة، ثمّ هي الكرامة

(١) بحار الأنوار - ج٤٤ - ص: ٣١٥

(٢) مثير الأحزان ص٥٢

التـي لا انقضـاء لهـا أبـداً».

وقـال زهـير بـن القـين: «والله لـوددت إني قُتلـت ثـمّ نُـشرت، ثـمّ قُتلـت، حتّـى أُقتـل كـذا ألـف قتلـة، وأن الله يدفـع بذلـك القتـل عـن نفسـك وعـن أنفـس هـؤلاء الفتيـة مـن أهـل بيتـك».

وتكلّـم جماعـة أصحابـه بـكلام يشـبه بعضـه بعضـا في وجـه واحـد، فقالـوا: «والله لا نفارقـك، ولكـن أنفسـنا لـك الفـداء، نقيـك بنحورنـا وجباهنـا وأيدينـا فـإذا نحـن قتلنـا كنـا وفينـا وقضينـا مـا علينـا»[1].

عاشوراء ميزان الحقيقة

إذا أردنـا أن نعـرف حقيقـة أنفسـنا لا بـد أن نمتحنهـا ونخضعهـا للاختبـارات المستمرة، عندمـا نحيـي العـاشر والسـواد يلـف المـكان، هـذا يذكرنـا بأنّنـا في حـرم الحسـين عليه السلام، فينبغي أن نتحمـل هـذه المسـؤولية ونحافـظ عـلى هـذا الحـرم، لهـذا السـواد قدسـيّة خاصـة، وقيمـة عظيمـة جـداً، النـاس يحرمـون بالثيـاب البيضـاء ونحـن نحـرم بلبـس السـواد، لا لكـي نتظاهـر بالحـزن -وإن كان هـذا المقـدار بحـقّ الحسـين عليه السلام يثـاب عليـه المـرء- إلّا أنّنـا نبحـث عـن تجـلي قيـم عاشـوراء في نفوسـنا وواقعنـا، في

(١) بحار الأنوار - ج٤٤ - ص: ٣١٥

كلام الله عزّوجلّ لنبيّه موسى عليه السلام: « **ياموسى كتبت رحمة لتابعيه من عبادي -تابعي الحسين عليه السلام- واعلم أنّه من بكى أو تباكى حرّمت جسده على النار** »[1] لاحظوا كيف رفع الله سبحانه وتعالى أبا عبد الله الحسين عليه السلام لتلك المكانة العظيمة والمقام المحمود.

من أراد الالتحاق بركب الحسين عليه السلام، يجب أن لا يكون كحميد بن مسلم يراقب المعركة ويستمع إليها من بعيد، فإنّ موقف الحياد بين الحق والباطل مرفوض، ولذلك نحن نقرأ في الزيارة: «**ولَعَنَ اللهُ أُمَّةً سَمِعَتْ بِذَلِكَ فَرَضِيَتْ بِهِ**»[2]، إن كنت تقف في جانب من تعارضت مصالحه مع الدين، وتعارضت مصالحه مع الوقوف مع الحسين عليه السلام فأنت مشمول بلعن اللّاعنين، وسينكشف زيف الادّعاء، ادّعاء المحبة لأهل البيت عليهم السلام، إذا ادّعى الإنسان أو تظاهر بالعبادة، وتظاهر بالصلاح وتظاهر بالأخلاق كلّ ذلك لن يغيّر من الحقيقة شيئاً لأنّ الله سبحانه وتعالى ينظر ويرى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[3].

تُنقل قصة عن العالم الجليل الشيخ جعفر التستري حيث

(١) بحار الأنوار - ج٤٤ - ص: ٣٠٨
(٢) التهذيب - ج٦ - ص: ١١٣
(٣) غافر: الآية ١٩

جاءوا إليه بشاب كي ينصحه، وكان ذلك الشاب منحرفاً متمرداً على كلّ شيء لا يراعي حلالاً ويقترف المحرّمات، فجلس معه الشيخ كي يتبادل معه أطراف الحديث وينصحه، وقبل أن يبدأ الشيخ تحدّث الشاب وقال: أريد أن أهمس في أُذنك ياشيخ جعفر بأمر ما، ولا أريد لأحد الاطلاع عليه، أذن له الشيخ وقال: تفضل، فهمس في أذنه بكلمات وإذا بالشيخ يبكي بكاءً عالياً، حتّى أنّ الحاضرين في المجلس انتبهوا لبكاء الشيخ، سُئل الشيخ جعفر: هل أساء إليك هذا الشاب بكلام أو ماشابه؟ قال: أبداً، فتساءلوا: إذن ما الذي جرى؟ و ماذا قال لك؟. قال الشيخ: لقد نطق بكلمة أوجعني بها، لقد قال لي: يا شيخ جعفر أنا الشاب المتمرد الفاسق المذنب أنا مرتكب المعاصي والكبائر، وهذا حالي أمام الله ونفسي وأمام الناس لا أخفي ولا أضمر شيئاً، ولكن ياشيخ جعفر احذر أن تكون بين الناس بهذه الهيئة وفي خلواتك إنسان آخر.

إنّ العارف المتدبر بهذه الكلمات يحقّ له أن يبكي، هل ننصح بعضنا البعض في العلن وفي الباطن زيف كبير؟ هل نتحدث عن الزهد في هذه الدنيا وترك الملذّات أمام الملأ وفي الباطن والفعل نكون ممن يبحث عن الدنيا؟ لنحذر أن نتظاهر بالإيمان والصلاح والتقوى، وفي داخلنا نفاق وخراب وفساد، فلا بد أن تنكشف الأمور عاجلاً أم آجلاً والسؤال

كيف يمكن لها أن تنكشف؟

إنّ الأمور ستنكشف للجميع عندما تتغيّر وتتبدّل الأحوال كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: « **وفي تقلب الأحوال علم جواهر الرجال**»[1]، عندما تقبل الدنيا عليك، وعندما تتبدّل أحوالك بما يتناسب مع ملذّات الدنيا، ستنكشف النوايا وتظهر الحقائق.

عاشوراء محطة للتأمل وفضح هذه النفس، ليكن يوم العاشر حصة درسيّة نقضيها في محاسبة خبايا النفس ومقاضاتها، يمكن لهذه النفس أن تخدع صاحبها وتوهمه، ولكن هل يمكن لها أن تخدع الحسين بن علي عليه السلام وهي تحيي ذكراه؟.

يمكن للفرد أن يدّعي العبادة بأن يصوم صوم العطش والجوع، وأن يحجّ حجّ إكثار الضجيج، ولكن في محرّم هل نلبس السواد إدعاءً أيضاً؟ هل يمكن أن تخدع الحسين عليه السلام بلباسك؟ أو بحضورك في المجلس الحسيني؟

هنا نحن نحتاج لفهم لغة خاصة، وهي لغة الحسين عليه السلام، ولا يمكن أن يشعر بأهميّة هذه اللّغة إلا الحسينيّون، فلا مكان للتظاهر أو الادّعاء في حرم الحسين عليه السلام، عندما تتوشح

(١) أصول الكافي - ج٨ - ص: ٢٢

النـاس السـواد، والجميـع ينـادي ياحسـين ياحسـين ياحسـين، في داخلهـم صـدق وحقيقـة وحـبّ لإمامهـم المظلـوم فهـم قـد قـرأوا وفهمـوا جيـداً معنـى: « أَحَـبَّ الحسـينُ الله سـبحانه» فـكان من عـطـاء الله لـه أن قـذف فـي قـلـوبـنا حبّ الحسين وحبّ زيارتـه عليه السلام، ومـن يدخـل في قلبـه حـبّ الحسـين لابـدّ وأن يكـون مؤمنـاً موالياً لأهـل البيـت صلـوات الله وسـلامه عليهـم وأن يكـون مسـلماً للحسـين تمـام التسـليم، عارفـاً بحقـه ومنزلتـه، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[1].

دعوة حسينية

تعالـو جميعـاً لندخـل في مدرسـة كربـلاء ونحظـى بـشرف الجلـوس والتـزود مـن دروس عاشـوراء، لنتخـرّج حسـينيّين كربلائيّـين، لتكـن سياسـتنا مرتبطـة بالحسـين، ولتكـن اجتماعتنـا محورهـا الحسـين، وليكـن اقتصادنـا مـع الحسـين، ولتكـن أخلاقنـا مـن بحـر الحسـين، وليكـن سـلوكنا يمـرّ عـبر الحسـين، لا نحتـاج في الوصـول إليـه تسـلق جبلٍ شـاهق أو خـوض لجـج بحـرٍ هائـج أو صعـود سـماء عاليـة، يكفينـا أن نتصالـح مـع أنفسـنا ونصفّـي أفئدتنـا ونحلّـق بأرواحنـا نحـو ترعـة الجنّـة كربـلاء، لنلتحـق مـع

(١) النساء: الآية ٦٥

أنصار سيد الشهداء ونحظى بالفوز العظيم، يكفي في ذلك أن نحيي شعائر الحسين فهذه ترسم لنا كلّ شيء، لكننا بحاجة إلى أن نفهم ونعي ونتمعن في هذه اللغة هل لدينا الاستعداد لذلك؟ هل لدينا تهيئة لنجتمع جميعاً حول راية الحسين؟

إن لم تتوحد الحسينيّات والمواكب والهيئات حول راية الحق، وتشكّل من نفسها مكوّناً واحداً ذلك يعني أننا لم نفهم لغة الحسين عليه السلام، ولن نكون بذلك من أصحاب المشروع الحسيني، ومن ضمن رواد ركبه الإصلاحي، فمن خلال مشروع الحسين عليه السلام نتطلّع لإصلاح واقعنا السياسي والاجتماعي والأخلاقي والمعرفي والاقتصادي، هذا الإصلاح يجب أن يمرّ عبر مدرسة الحسين عليه السلام وجامعة كربلاء، وبالتسليم الحقيقي البعيد عن التظاهر والادّعاء ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]، فلنتبع سيد شباب أهل الجنة في كلّ عمل، صغيراً كان أم كبيراً، المسؤول وغير المسؤول، السياسي وغير السياسي، رجل الدين وغيره، المرأة والرجل، فلنقتدِ جميعاً بالحسين عليه السلام لأنّه قدوة العظماء فمن أراد العظمة فليولّ وجهه صوب الحسين عليه السلام، وليحذر من الغوص بعيداً عن شاطئ كربلاء، فيكون من أولئك الذين أغلقوا على أنفسهم فانكشفت سوءات قابيل

(١) آل عمران: الآية ٣١

في أولئك القوم فلم يراعوا حرمة للإنسانيّة وللطفولة البريئة، وأبوا أن يسقوا الوردة ماء، فماتت فوق حضن الطهر.

هي كربلاء مدرسة الحقائق في وجه الزيف، وهو الحسين عليه السلام مربّي الأجيال على الصدق، وهي أيام عاشوراء مدرسة الإخلاص في وجه النفاق.

الإمام الحسين عليه السلام

طـريق النجــاة

قال الإمام الرضا عليه السلام:

«يا بن شبيب..

إنّ المحرم هو الشهر الذي كان أهل الجاهلية يحرّمون فيه الظلم والقتال لحرمته، فما عرفت هذه الأمّة حرمة شهرها، ولا حرمة نبيّها، لقد قتلوا في هذا الشهر ذريته، وسبوا نساءه، وانتهبوا ثقله، فلا غفر الله لهم ذلك أبداً..

يا بن شبيب..

إن كنت باكياً لشيء فابك للحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام فإنّه ذُبح كما يذبح الكبش، وقُتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً ما لهم في الأرض شبيهون، ولقد بكت السماوات السبع والأرضون لقتله..

يا بن شبيب..

لقد حدّثني أبي عن أبيه عن جده عليهم السلام أنّه لـمّا قُتل جدي

الحسين صلوات الله عليه أمطرت السماء دماً وتراباً أحمر..

يا بن شبيب..

إن بكيت على الحسين حتّى تصير دموعك على خديك غفر الله لك كلّ ذنب أذنبته صغيراً كان أو كبيراً قليلاً كان أو كثيراً..

يا بن شبيب..

إن سرّك أن تلقى الله عزّوجلّ ولا ذنب عليك فزر الحسين عليه السلام..

يا بن شبيب..

إن سرّك أن تسكن الغرف المبنية في الجنّة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فالعن قتلة الحسين..

يا بن شبيب..

إن سرّك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استشهد مع الحسين بن علي عليه السلام فقل متى ذكرته: ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً..

يا بن شبيب..

إن سرّك أن تكون معنا في الدرجات العلى من الجنان

فاحزن لحزننا وافرح لفرحنا وعليك بولايتنا»[1]

شهادة السبط الثاني

خُسفت شمس الباطل بثورة الحق، واختفت أنوارها خلف السحاب، وتكسّرت تلك النبال أمام عظمة ذلك الجسد، وكلّ السيوف القاطعات تثلمت، وانتصر جيش الحق، وانهزم جيش الباطل، فانتصر الدم على السيف.

لم يكن ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدوة وحسب، بل كان جامعة قائمة بذاتها، مدرسة أخلاقيّة، ومدرسة علميّة، وفوق كلّ ذلك هو سيّد الشهداء، لقد ألقى أعظم درس في تاريخ الوجود، علّم الكون كيف تكون التضحيات، وحدّد للبشرية قانون الكرامة والحياة.

لقد اشتدَّ عطشه عليه السلام لترتوي شيعته، ويبس لسانه لينطق أنصاره بالحق، ومن هنا جاء النداء: اشرب الماء واذكر ظمأ الحسين عليه السلام، ولو فهمنا ودقّقنا وتدبرنا في جوهر هذه الكلمات، لأدركنا أنّ الأمر أعمق من مجرد مسألة تذكّر العطش، بل لولا الحسين عليه السلام لما كانت الحياة بأسرها، فالماء هو الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[2]، وقد أعاد الإمام عليه السلام إحياء هذا

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام - ج ٢ - ص ٢٦٨- ٢٦٩

(٢) الأنبياء: الآية ٣٠

الكـون بثورتـه المباركـة، وعندمـا تـشرب المـاء عليـك أن تـدرك بـأنّ حياتـك هـذه ماكانـت لـولا تضحيـة سـبط رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم السـبط الثـاني الحسـين بـن عـلي عليه السلام، عـن داود الرقـي قـال: «كنـت عنـد أبي عبـد الله عليه السلام إذا استسـقى المـاء، فلـما شربـه رأيتـه قـد اسـتعبر، واغرورقـت عينـاه بدموعـه ثـمّ قـال لي عليه السلام:

يـا داود لعـن الله قاتـل الحسـين عليه السلام، فـما مـن عبـد شرب الماء فذكـر الحسـين و لعـن قاتلـه، إلّا كتـب الله لـه مائـة ألـف حسـنة، و حـطّ عنـه مائـة ألـف سـيّئة، ورفـع لـه مائـة ألـف درجـة، وكأنّـما أعتـق مائـة ألـف نسـمة، و حـشره الله يـوم القيامـة ثلـج الفـؤاد»[1].

الإرث العظيم من الحسين عليه السلام الكريم

عـن أبي عبـد الله عليه السلام قـال: «**مـن أنشـد في الحسـين عليه السلام بيتـاً مـن شـعرٍ فبكـى وأبكـى عـشرة فلـه ولهـم الجنّة**..فلـم يـزل حتّـى قـال: **ومـن أنشـد في الحسـين بيتـاً فبكـى** -وأظنّـه قـال- **أو تباكـى، فلـه الجنّـة**»[2]، وفي روايـة أخـرى قـال النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**والـذي بعثنـي بالحـقّ نبيّـاً، إنّ الحسـين بـن عـلي في السـماوات أعظـم ممـا هـو في الأرض، واسـمه مكتـوب عـن يمـين العـرش: إنّ**

(١) وسائل الشيعة- ج٢٥- ص: ٢٧٢

(٢) ثواب الأعمال: ٨٥ ثواب من أنشد في الحسين شعراً، أو بكى، أو تباكى

الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»[1].

ترى أيُّ تضحية كتضحية الحسين عليه السلام؟ وأيُّ عطاء كعطاء الحسين عليه السلام؟. وأيُّ إباءٍ كإباء الحسين عليه السلام؟ لقد ضحّى أبو عبد الله الحسين عليه السلام من أجل الإنسانيّة جمعاء، إنّ من لا يفهم ثورة الحسين عليه السلام مَثَله ﴿ ...كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[2]، فهو أعمى القلب والبصيرة، ومن لا يقف مع الحسين عليه السلام هو الخاسر الأكبر.

لقد كان الحسين عليه السلام علماً من أعلام الخير في هذه الأمّة، لم يستطع أن يرى الشر ينتشر في جسم الإسلام الحنيف، فانبرى له بكلّ حزم وشجاعة، وبإرادة فوق كلّ إرادة، ولو سُفِك في سبيل ذلك دمه، وسُبيت حريمه، لأنّه جزء من رسالة جدّه وأبيه، وقد أعلنها في خطبته عند خروجه من الحجاز إلى الكوفة: «**الحمد لله، وما شاء الله، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله وصلى الله على رسوله وسلم..**

خُطّ الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي

(١) مدينة المعاجز – ج٤ ص: ٥٢، وبمعناه وبألفاظ قريبة منه في بحار الانوار، ج ٣٦ ص ٢٠٥

(٢) البقرة: الآية ١٧

مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي يتقطّعها عسلان الفلوات، بين النواويس وكربلا، فيملآن مني أكراشاً جوفا وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خط بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس تقرّ بهم عينه، وتنجز لهم وعده»[1]، لذا فقد تجسّدت التضحية بكلّ معانيها في سيد الشهداء عليه السلام، وإنّ ما قدّمه الحسين عليه السلام أمر مرتبط بساحة القدس الإلهيّة، فرفعه الله سبحانه و تعالى حتّى بلغ ما بلغ من المنازل العالية، وجعله وارث الأنبياء، وصار الحسين عليه السلام الوسيلة إلى الله ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾[2]، وبحبّه وبقربه نرجوا نجاة من الله.

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

لن تنسى الإنسانيّة هذه التضحية الجليلة من ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تلك التضحية التي كان عنوانها الرئيس والوحيد «**إلهي رضاً برضاك، لا معبود سواك**»، لم تكن ثورة من أجل المناصب والمصالح، ولا من أجل السلطة و الهوى، بل كانت من أجل إعلاء كلمة التوحيد والاصلاح والحفاظ

(١) بحار الأنوار - ج ٤٤ - ص ٣٦٦ - ٣٦٧

(٢) المائدة: الآية ٣٥

على الدين نقياً دائماً أبداً، وتجذير الولاية في نفوس المؤمنين.

من هنا علينا جميعاً أن لا نفرّط في هذه الثروة وهذا التراث، هذا المكتسب العظيم والسفر الجليل، ونعمل بجدّ من أجل استمراريّة ثورته وإحيائها دائماً لكي يحيى الدين دوماً بحياته، فحياة عاشوراء حياة الدين، فما منحنا إيّاه الحسين عليه السلام، ثروة لا تقدّر بثمن، فمجرد أن يقول الإنسان: «**السلام عليك يا أبا عبد الله**» تسلّم معه الملائكة، وتسلّم معه الجدران، وتردد معه البراري والبحار، لأنّ الحسين عليه السلام أَثَّرَ في كل شيء، وبكى على فقده كل شيء، ولم يُبكى على أحدٍ كما بُكي على الحسين عليه السلام، يقول الإمام الحجة عجل الله فرجه الشريف: «**لأندبنك صباحاً ومساءً ولأبكينّ عليك بدل الدموع دماً**»[1]، والإمام الرضا عليه السلام يقول: « **إنّ يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلّ عزيزنا بأرض كربٍ وبلاء، وأورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء**»[2]، فيصف الإمام حاله وحال أهل البيت بقوله: «**أقرح جفوننا**»، لاحظوا الحالة التي يصل إليها الإمام حينما يبكي على الحسين عليه السلام، والإمام هو إمام معصوم راجح العقل مفترض الطاعة، لا يتسبب بالأذى لنفسه، لكن في حبّ الحسين عليه السلام وعلى مصاب الحسين: «**فليبكِ الباكون**

(١) بحار الأنوار – ج٩٨ – ص: ٢٣٧

(٢) بحار الأنوار – ج٤٤ – ص: ٢٨٣

وإيَّاهم فلينـدب النادبـون، ولمثلهـم فلتـذرف الدمـوع، وليـصرخ الصارخـون ويضـجَّ الضاجـون، ويعـجّ العاجـون».

إنّ مـن الواجـب عـلى الأمـة أن تحافـظ عـلى هـذه الأمانـة التـي وضعهـا ابـن بنـت رسـول الله بـين يديهـا، وتعمـل عـلى اسـتمراريّة أهـداف هـذه الثـورة إلى أن يسـتلمها مولانـا الطالـب بـدم المقتـول بكربـلاء عجّـل الله تعـالى فرجـه الشريـف، علينـا أن لا نكـون ممـن يطعـن الحسـين عليه السلام كـما طعنـه بنـو أميـة، بـأن نبخـس هـذه الثـورة حقهـا، فلـو كانـت لبقيّـة الأمـم ثـورة كثـورة الحسـين عليه السلام لاسـتدرّت منهـا طاقـات تؤهلهـا للسـيطرة عـلى أرجـاء هـذه المعمـورة.

إنّ روح ثـورة الحسـين عليه السلام أمانـة امتحـن الله بهـا هـذه الأمّـة، فـكان لزامـاً علينـا أن نحافـظ عـلى هـذا الـسر الإلهـيّ، وهـذا النـصر المبـين، ونحافـظ عـلى بقائـه كبقـاء القـرآن الكريـم، لننتهـج نهـج الإمـام ولنضـع أقدامنـا عـلى الطريـق الـذي سـار فيـه وخطـه لنـا، ونبقـى عـلى الأثـر لنصـل إلى تلـك السـعادة الأبديّـة التـي أرادهـا أبـو عبـد الله عليه السلام.

الطريق إلى اللّه

إنّ الله تعـالى يقـول في كتابـه العزيـز: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

دَاخِرِينَ ﴾[1]، أي أنّ العبد لابدّ أن ينقطع إلى الله تعالى في طلب كلّ شيء لافتقاره لكلّ شيء، فهو المحتاج إلى الله والفقير إليه، والله تعالى الغني عن عباده. والحسين عليه السلام هو باب الله الذي منه يُؤتى، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الأئمة من ولد الحسين من أطاعهم فقد أطاع الله، ومن عصاهم فقد عصى الله، هم العروة الوثقى وهم الوسيلة إلى الله تعالى**»[2]، لقد جعله الله سبحانه وتعالى وسيلة وباباً إلى حبّه وإلى رحابه وجنّته، ولهذا في أصعب الظروف والمصاعب وعندما تغلق الأبواب نطرق باب الحسين عليه السلام فتتذلل الصعاب، وتُفتح لنا الأبواب.

وأيّ وسيلة توصلنا إلى رضى الله عزّوجلّ أفضل من الحسين عليه السلام والأئمة الطاهرين، ما قدّمه الإمام عليه السلام لله عزّوجلّ كان عظيماً، ولذلك فقد أعطاه الله كلّ شيء، فجعله باب معرفته وتوحيده، وصارت معرفة سيد الشهداء عند الله تبارك وتعالى بمثابة معرفته جلّ وعلا، والدفاع عن الحسين دفاعاً عنه، ونصرته نصرة له، لهذا فاز أصحاب الحسين عليه السلام بهذه المنزلة العظيمة بعدما وطّنوا أنفسهم للدفاع عن الإمام عليه السلام فجعلهم الله تعالى: «**سادة الشهداء في الدنيا والآخرة**»[3].

---

(١) غافر: الآية ٦٠

(٢) بحار الأنوار - ج٣٦ - ص: ٢٤٤

(٣) بحار الانوار - ج ٩٨- ص١٦٦.

يقول أستاذنا سماحة آية الله السيد هادي المدرسي:

«سألني: من أين للحسين عليه السلام هذا المجد العظيم؟

قلت: باختصار، لقد أعطى الحسين عليه السلام كل شيء لله، فأعطاه الله كلّ شيء..!»[1]

«لا يقاس الحسين عليه السلام بالثوّار بل بالأنبياء، ولا تقاس كربلاء بالمدن بل بالسماوات، ولا تقاس عاشوراء بحوادث الدهر بل بمنعطفات الكون»

إنّه لمن غير الإنصاف أن نصف الحسين عليه السلام «بالمظلوم» هذه الكلمة التي نستخدمها في أقلّ مشكلة تصيبنا فنطلق على أنفسنا أنّنا مظلومون، أو أنّنا ظُلمنا، فهذه الكلمة يستخدمها كلّ إنسان يتعرّض لأقلّ أذيّة في حياته، نعم تعارفنا على أن ننادي سيد الشهداء بـ «يامظلوم»، ولكن إنّني أُشهد الله أنّ هذه الكلمة قليلة في حقّ مظلوميّة الإمام عليه السلام.

إنّ ماجرى على الإمام الحسين عليه السلام لا يتحمّله قلب بشر، لذلك قال الإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف: «**ولأبكينَّ عليك بدل الدموع دماً**»، إنّ الدموع لن توفّي انفجاعنا بهذه المصيبة العظيمة.

(١) ويبقى الحسين – سماحة آية الله السيد هادي المدرسي – ص ٧٤

عن المفضل بن عمر: «لمّا أمر المنصور الدوانيقي عليه لعائن الله عامله على المدينة أنْ يُحرق على أبي عبد الله الصادق عليه السلام داره، فجاءوا بالحطب الجزل ووضعوه على باب دار الصادق عليه السلام وأضرموا فيه النار، فلمّا أخذت النار ما في الدهليز تصايحنَ العلويات داخل الدار وارتفعت أصواتهم، فخرج الإمام الصادق عليه السلام وعليه قميص وإزار وفي رجليه نعلان وجعل يخمد النار ويطفئ الحريق حتّى قضى عليها.

فلمّا كان الغد دخل عليه بعض شيعته يسلّونه فوجدوه حزيناً باكياً، فقالوا: ممّا هذا التأثر والبكاء، أمِنْ جرأة القوم عليكم أهل البيت وليس منهم بأوّل مرة ؟

فقال الإمام عليه السلام: «**لا، ولكن لمّا أخذت النار ما في الدهليز، نظرت إلى نسائي وبناتي يتراكضن في صحن الدار من حجرة إلى حجرة، ومن مكان إلى مكان هذا وأنا معهن في الدار، فتذكّرت روع عيال جدّي الحسين عليه السلام يوم عاشوراء لمّا هجم القوم عليهنَّ، ومناديهم ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين**».

كذلك الإمام السجاد عليه السلام وهو من البكّائين الخمسة، كلّما ذكر مصيبة أبيه الحسين بكى، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّ جدّي زين العابدين عليه السلام بكى**

على أبيه أربعين سنة، صائماً نهاره، وقائماً ليله، فإذا حضر الإفطار وجاء غلامه بطعامه وشرابه، فيضعه بين يديه ويقول: كل يا مولاي. فيقول عليه السلام: قتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عطشانا. فلا يزال يكرر ذلك ويبكي حتّى يبتل طعامه من دموعه، فلم يزل كذلك حتّى لحق بالله عزّوجلّ»[1].

صور من مأساة الطفوف

رغم فداحة المصائب التي نزلت بالإمام عليه السلام إلّا أنّه كان راضياً بما كتبه الله له عزّوجلّ، مؤمناً بوعد الله أنّه ينصر من ينصره، ولكن يبقى دورنا نحن من أتينا بعد الإمام هل نكمل مسيرته، ونحمل رايته؟ أم نتخاذل عنها؟ لذلك سوف نستعرض بعضاً من المصائب التي نزلت بالإمام عليه السلام حتّى نعرف حجم التضحية التي أقدم عليها سيد الشهداء فنعرف بذلك عظم المسؤولية الملقاة علينا:

- **سَلبُ الإمام**: بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام والتمثيل بجسده الطاهر أقبلوا على سلبه ونهبه فأخذ قميصه إسحاق بن حوية الحضرمي، وأخذ سراويله بحر بن كعب التيمي، وأخذ عمامته أخنس بن مرثد بن علقمة الحضرمي، وأخذ نعليه الأسود بن خالد، وأخذ خاتمة

(١) وسائل الشيعة – ج٣ – ص: ٢٨٢

بجدل بن سليم الكلبي، وقطع إصبعه عليه السلام مع الخاتم وأخذ قطيفة له عليه السلام كانت من خز قيس بن الأشعث، وأخذ درعه البتراء عمر بن سعد، وأخذ سيفه جميع بن الخلق الأودي وقيل رجل من بني تميم يقال له أسود بن حنظلة.

- **سلب النساء والأطفال**: تسابق القوم على نهب بيوت آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقرة عين البتول حتّى جعلوا ينتزعون ملحفة المرأة من على ظهرها، وخرجت بنات آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحريمه يتساعدن على البكاء ويندبن لفراق الحماة والأحباء [1]، وكان أوّل المبادرين في النهب شمر بن ذي الجوشن، فدخل الجند وجعلوا يسلبون ما على النساء والأطفال، حتّى أخذوا قرطاً في أذن السيدة أم كلثوم وخرموا أذنها.

- **ذبح أصغر جندي في معسكر الحسين عليه السلام**: لم يكتف الجيش الأموي الظالم بقتل الإمام وأصحابه جميعاً بل قتلوا حتّى الأطفال الرضع كعبد الله الرضيع ابن الإمام الحسين وهو دون العام من عمره حيث ذبحوه على صدر أبيه الحسين، ولم يسلم من رجالات معسكر

(١) بحار الأنوار - ج٤٥- ص: ٥٧

الحسين إلّا ولده علي بن الحسين زين العابدين لأنّه كان عليلاً مريضاً. لقد ارتكب الجيش الأموي الباغي في كربلاء جرائم فظيعة، لا يصحّ ارتكابها حتّى مع الأعداء الكافرين، فضلاً عن عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

- **رضّ الجسد الشريف**: عوضاً من أن يقوم القوم بدفن الأجساد الطاهرة ويواروها الثرى، عمدوا إلى جسد الحسين عليه السلام وطحنوا عظامه الشريفة بحوافر خيولهم اللئيمة؛ فبعد استشهاده عصر يوم عاشوراء نادى عمر بن سعد في أصحابه: من ينتدب إلى الحسين فيوطئه بفرسه؟ فانتدب عشرة، حيث داسوا الحسين بخيولهم حتّى رضّوا صدره وظهره، وهم: إسحاق بن حويّة الحضرمي، الأخنس بن مرثد، وحكيم بن الطفيل، وعمرو بن صبيح، ورجاء بن منقذ، وسالم بن خيثمة، وواحظ ابن ناعم، وصالح بن وهب، وهانئ بن ثبيت، وأسيد بن مالك. «عليهم لعائن الله تعالى وأنبيائه ورسله والناس أجمعين» فداسوا الحسين عليه السلام بحوافر خيلهم حتّى رضّوا ظهره وصدره[1]. ولنا أن نتخيّل عظم الوزن الذي وقع على جسد الإمام الحسين عليه السلام حتّى سُمعت أصوات عظامه تتكسر.

(١) بحار الأنوار - ج: ٤٥ - ص: ٥٩

- **حرق الخيام**: لم يكتف جلاوزة بني أميّة، أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام بسلبه ورضّ جسده الطاهر بحوافر الخيل، بل جاوزوا ذلك فعدوا إلى الخيام وأحرقوها، وأضرموا فيها النار، يقول الإمام الرضا عليه السلام: «**إنّ المحرم شهر كان أهل الجاهلية يحرّمون فيه القتال، فاستُحلّت فيه دماؤنا، وهُتكت فيه حرمتنا، وسُبيت فيه ذرارينا ونساؤنا، وأُضرمت فيه النار في مضاربنا، وأُنتهب ما فيها من ثقلنا**[1]**، ولم تُرع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرمة في أمرنا**»[2].

إنّ رسالة الحسين عليه السلام قد وصلت إلينا بعد أن تحمّل الإمام وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام شتى أنواع المصائب فإنّ من الوفاء لهم أن نحفظهم عبر حفظ رسالة الثورة والاستمرار في حمل مشعلها.

(١) الثقل: متاع السفر، وكل شئ نفيس مصون

(٢) بحار الأنوار -ج٤٤ - ص٢٨٣

الفهرس

- المقدمة ٧

الاستقلالية وحسن الاختيار ١٣

- نظرية الإسلام..... ١٧
- بين الاختيار وحسن الاختيار ١٩
- موعظة من التاريخ ٢١
- الإسلام والدعوة إلى حسن الاختيار ٢٣
- عامل الزمان والمكان ٢٤
- الحياة بين الثروة و النجاح الحقيقي ٢٦
- رابطتنا بأهل البيت عليهم السلام:..... ٢٧

- وهديناه النجدين ٢٩
- ملكة حسن الاختيار ٢٩
- الاختيار بين الحق والباطل ٤٠
- عاشوراء والدور المطلوب ٤١
- مواقف من كربلاء..... ٤٣
- زهير والاستجابة لنداء الحق ٤٤
- الحر وحسن الاختيار ٤٦
- عبيد الله الجعفي والتهرب من الحق ٤٨

الذنوب و العقد النفسية ٥١

- التربية وبناء الفرد..... ٥٥
- البيئة وتحديد هوية المجتمع..... ٥٦
- البيئة والسلوك الإنساني ٥٩
- الآفات الاجتماعية ٦٣
- أوهام وأمراض نفسية ٦٤
- الإعراض عن الله عزّوجلّ ٦٧
- الوساوس الشيطانية..... ٧٢
- الذنوب والأمراض النفسية..... ٧٤
- نور العبادة ٧٨
- العباس عليه السلام مدرسة التضحية..... ٨١

كربلاء
منطلق التغيير ٨٥

- التغيير سنة كونية ٨٧
- الوعي منطلق التغيير ٩٢
- التغيير طريق الخير.. ٩٤
- التطور في خدمة الإنسان.. ٩٦
- وقفة مع النفس.. ٩٧
- لكي لا نكون مع المتقاعسين ١٠٠
- أثر العلم والقراءة في صناعة التغيير ١٠٣
- عش الحقيقة لا الواقع ١٠٦
- عاشوراء ثورة التغيير الكبرى ١٠٩
- القاسم بن الحسن عليه السلام ونصرة الحق.. ١١٣

قيمة العمل
في الإسلام ١١٧

- لا يضيع أجر العاملين ١٢٤
- معرفة قيمة العمل ١٢٧
- الإيمان سبيل العمل الصالح ١٣٠
- أثر التربية في بناء المجتمع الحيوي ١٣٢
- إن الله يحب العاملين ١٣٦

• كربلاء مدرسة العمل الصالح ١٤٠

الإلتزام

بين التظاهر و الحقيقة ١٤٣

• بين الزيف والواقع ١٤٥
• بين المظاهر الدنيوية والحقائق ١٤٧
• إصلاح أم إفساد؟ ١٥١
• كيف نواجه الزيف؟ ١٥٤
• لغة الحقيقة ١٥٦
• العناوين العاشورائية ١٥٩
• ليلة الحقيقة ١٦٢
• عاشوراء ميزان الحقيقة ١٦٧
• دعوة حسينية ١٧١

الإمام الحسين عليه السلام

طـريق النجــاة ١٧٥

• شهادة السبط الثاني ١٧٩
• الإرث العظيم من الحسين عليه السلام الكريم ١٨٠
• هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ١٨٢
• الطريق إلى الله ١٨٤
• صور من مأساة الطفوف ١٨٨

لقد أحيا الإمام الحسين عليه السلام بنهضته المباركة الإسلام، وأنعش بدمائه الطاهرة العقيدة، وأذكى بمناقبيّته روح الدين بعد أن اندرست معالمه وانطفأ نوره فأبى الحسين عليه السلام إلّا أن يتمّ نور الله ولو كره الكافرون، فأشرق الحسين عليه السلام بإذن ربّه على الكون كلّه وعلى البشريّة جمعاء وخسر هنالك المبطلون.

وجادت كربلاء بأنجم وكواكب ضربوا أروع الأمثلة لنصرة الحقّ فكانوا أشعّة من نور الحسين عليه السلام يفيضون، طبعوا بدمائهم على جبين الإنسانيّة شعاراته الخالدة «هيهات منّا الذلة» فما وجدوا الموت إلا سعادة وما الحياة مع الظالمين إلّا برما فهتفوا ملبّين داعي الله «لبيك يا حسين».

وإننا إذ نعيش هذه الأيام العظيمة أيام الله علينا أن نكون الأوفر حظاً، والأعظم نصيباً والأوفى كيلاً من نمير معارف كربلاء ومن غمير فيوضات عاشوراء وأن نقوم بواجباتنا الرسالية تجاه الإمام الحسين عليه السلام..